شخصيات مشهورة ومغمورة

تأليف

د. جمال الدين الرمادي

الكتاب: شخصيات مشهورة ومغمورة

الكاتب: د. جمال الدين الرمادي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الرمادي ، جمال الدين

شخصيات مشهورة ومغمورة/ د. جمال الدين الرمادي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٢٤ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٣٨٧ / ٢٠٢٠

شخصيات مشهورة ومغمورة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

لمحات من حياة المشاهير

من منن الله على خلقه أن جعل لكل امرئ موهبة خاصة، وميلا ظاهرا يمتاز بهما على غيره ويتفوق بهما على سواه، وكثيرا ما تتجلى أمارات هذه الموهبة، وتتراءى علامات هذا الميل منذ الطفولة، وبذلك قسم علماء النفس الميول قسمين هما: ميول فطرية وميول مكتسبة، والميول الفطرية هي التي تنشأ مع الإنسان منذ الصغر، وتنمو معه على مر الأيام، أما الميول المكتسبة فهي تلك التي يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به ومن قراءاته واستعداده، وتجاربه، واشتراكه في معترك الحياة.

وكثيرا ما تبرز تلك المواهب منذ الطفولة، وتتفتح براعمها عند الشباب إذا وجدت أرضا خصبة وتشجيعا وتأييدا، فتشرق وتزهر، وتنبت من كل زوج بهيج، وزد على ذلك أن المثابرة في سبيل النجاح من أهم العوامل على بلوغه، ولنا من تاريخ العلماء والأدباء والمفكرين أمثلة كثيرة تؤيد هذا الرأي كل التأييد.

فالمفكر الفرنسي الشهير فولتير كان منذ نعومة أظافره يميل إلى الكتابة والاطلاع وحفظ قصائد قصيرة وهو في الثالثة من عمره، وكتب تراجيديا وهو في الثانية عشرة من عمره ولكنها لم تظفر بإعجابه فأحرقها

بعد أن مزق أصولها شر ممزق. وقد تجلت مواهبه في أثناء دراسته في اللغة والأدب ولما بلغ السابعة عشرة عكف على دراسة القانون ولولا مثابرته على الدرس ما ترك لنا هذا التراث الفكري الخالد الذي كان دستورا من دساتير الثورة الكبرى في فرنسا.

وقل مثل ذلك عن العالم المعروف إسحاق نيوتن مكتشف نظرية الجاذبية والتي قدر العلماء قوته العقلية بمائة وسبعين درجة بما يزيد سبعين درجة على متوسط ذكاء الفرد العادي، فقد كان منذ نعومة أظافره يميل إلى دراسة الميكانيكا وإلى صنع بعض الآلات، فصنع ساعة مائية، وطاحونة هوائية، وعربة ذات محرك في سيرها، ولولا نزاعه مع أحد أصدقائه ومحاولة التفوق عليه، ومثابرته على الكفاح ما اهتدى إلى نظرية الجاذبية التي كان لها أثر خطير في الميدان العلمي.

بل إن هؤلاء العباقرة الذين خلدهم التاريخ بأعمالهم لم يولدوا في أفواههم ملاعق من ذهب- كما يقولون- إنما جاهدوا وثابروا حتى أدركوا الغاية من كفاحهم وجهادهم.

ومثال ذلك الزعيم العظيم جورج واشنطن، فقد ولد في واشنطن عام ١٧٣٢ من أبوين فقيرين، ومات أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره فكفلته أمه، ثم اشتغل مساحا بولاية فرجينيا، وقام بمسح الأرض في الأحراج والغابات، وكان يلاقي صنوف المشقة في سبيل ذلك ثم انتهى به المطاف إلى العمل في فرقة المليشيا برتبة صاغ "مأجور" وأظهر في أثناء خدمته جلدا عظيما ومثابرة فائقة لدرجة انه قام برحلة شديدة

الخطورة عبر الصحراء والمجاهل والأحراج في شتاء قارس البرد، هائج العواصف حتى يقدم احتجاجا رسميا على بعض الأعمال الحربية.

وأظهر واشنطن بسالة منقطعة النظير في معركة التحرير حتى انتخبه الكونجرس الأمريكي لقيادة الجيش الأمريكي الجديد.

ولما أقر الدستور اختاره الشعب أول رئيس للجمهورية الجديدة وارتفع ابن الشعب نتيجة كفاحه ومثابرته إلى كرسي الرياسة ..

وإذا انتقلنا مع عالم السياسة إلى عالم الأدب وجدنا أدبيا كبيرا مثل كارل ساند برج نشأ فقيرا، وعمل وهو في الثالثة من عمره على مساعدة أسرته المكونة من تسعة أفراد ببيع الصحف، وجر عربات الألبان، حتى إذا مل هذا العمل اشتغل صبيا بدكان حلاق، ثم عمل في القطر الأمريكية المسافرة إلى الغرب كحامل للبضائع والحقائب. وقام بغسل الأطباق في الفنادق بمدينة ويومنجوبنراكس وغيرهما. ولكنه كان في أثناء هذا كله يثابر على القراءة والاطلاع دون سأم أو ملل حتى أخرج للناس أضخم ترجمة لحياة إبراهام لنكولن في مجلد من ستة أجزاء كما أخرج للناس مجموعة رقيقة من الشعر ظهرت في ديوان بديع أطلق عليه "قصائد شيكاغو"، ونشر بعد ذلك سبعة أجزاء من الديوان، وترجمة صافية لحياته، ومجموعتين من الأغاني الشعبية وغيرهما من الآثار الأدبية التي خلدت اسمه في سماء الأدب والتاريخ.

وقل مثل ذلك الشاعر الأمريكي الكبير "روبرت فروست" الذي ظل ينتقل بين الحرف ليعول نفسه، فكان صبيا في مصنع، ثم كان مدرسا، ثم

محررا بإحدى الصف الإقليمية، وظل يثابر وينتج للناس أروع الآثار الأدبية حتى اختير أخيرا مستشارا لمكتبة الكونجرس لشئون الشعر الإنجليزي ومنح جائزة "بولترز" للشعر أربع مرات وجائزة "لنفنسون" وجائزة "راسل ليونز" التذكارية والميدالية الذهبية من المعهد القومي للفنون والآداب وميدالية روزفلت وغير ذلك من الجوائز والميداليات.

وعنى عن البيان أنه لولا مثابرته "روبرت فروست" على القراءة والاطلاع وتنمية مواهبه الفنية ما استطاع أن يدرك هذه المنزلة العظيمة من التقدير ..

ولا أظن أن أحدا لا يقدر ذلك الصبي الصغير الذي كان يعيش مع بعض الأصدقاء في لندن في حجرة مظلمة تؤويه في إحدى الصيدليات ليلصق بطاقات الأدوية على الزجاجات ويقضي نهاره كله في هذا العمل دون أن يشبع رغبته الأدبية التي حال فقر والديه وأثقال كاهلهما بالديون دون تحقيقها.

ولكن الظروف المواتية قيضت له من ظفر منه بكلمات التشجيع وهو أحد أصدقاء والده، فشجعه أن يكتب دون أن يفتر عزمه، ولولا مثابرته هو نفسه في هذا الميدان ما استطاع أن يصل إلى أوج الشهرة والمجد.

لم يكن هذا الصبي إلا الكاتب الذائع الصيت "تشارلز ديكينز" Charles Dickens الذي عزفت الصحف عن نشر قصصه ومقالاته في بادئ الأمر، فلم يجد غضاضة في الاستمرار على الكتابة، وانتهى به

المطاف إلى أن أرسل قصة لأحد الناشرين فقبل نشرها بعد أن أرسل له كتاب شكر وتقدير، ومنذ ذلك الوقت عكف الفتى على الكتابة وترك مخزن الأدوية الذي يعمل فيه، وطفقت كتبه تنشر في كل مكان وتترجم إلى مختلف اللغات لقوة أفكارها، ومتانة موضوعها.

وكذلك كان حال الكاتب العظيم هـ. ج. ويلز H. G. Wells الذي كان يعمل كعامل بسيط في متجر لبيع الأقمشة، وكان عليه أن يسير كل يوم على قدمه ميلين أو أكثر حتى يصل إلى هذا المتجر، ومثل ذلك في المساء. حتى دب اليأس في نفسه، إذ كان يتناول نظير هذا التعب الشديد؛ وهذا النصب المضنى العنيف أجرا ضئيلا لا يسمن ولا يغني من جوع. ويظل في عمله حتى ساعة متأخرة من الليل، ولا يعرف طعم الراحة حتى يعود إلى البيت. فصمم "ويلز" على الانتحار وأرسل إلى أمه فكتبت إليه تقول:

" لقد تركت يا بني مرحلة الطفولة ودخلت مرحلة الشباب، وأعتقد أن لك من العقل ما يصونك من خلل التفكير، فافعل ما تشاء".

ولكن نفسه كانت لا تزال عزيزة عليه، فلم يقدم على الانتحار وأرسل إلى أستاذ له خطابا يبثه فيه شكواه، وبلواه، فما كان من هذا الأستاذ إلا أن أرسل إليه يشجعه ويدفعه إلى الأمام ويعرض عليه في ختام الرسالة أن يعمل كمدرس في أحدى المدارس، وكانت هذه هي نقطة التحول في حياة هـ. ج. ويلز، ومنذ ذلك التاريخ أقدم على البحث والدراسة حتى ظفر بالأستاذية، وبلغ مجموع ما أنتجه من الكتب ٧٧

كتابا أكسبته أكثر من مليون جنيه.

تلك هي لمحات من حياة العباقرة ومنها تتبين أن مواهبهم لم تخرج إلى النور إلا بعد أن سمعوا كلمات التشجيع تلقى إليهم، وترن في مسامعهم، فخرجت كنوز العبقرية إلى دنيا الوجود، ولذلك كان لزاما علينا ألا نسخر من مواهب الشباب وأن نشجعهم ونحاول أن نوجههم الوجهة الصحيحة، ومن يدري فربما يكون بين الشباب من يكون عبقريا عظيما كهؤلاء؟

ولكن لا يغرب عن البال أن التشجيع لا يمكن أن يؤتي ثمرته في الأرض المجدبة القاحلة ولابد أن تصاحبه المثابرة والجهاد، فالعزيمة القوية تستطيع أن تفل الحديد، والإرادة الصارمة تستطيع أن تدرك المطالب دون صعوبة أو عسر.

وفي هذا المعنى يقول البروفسور "وليم جيمس": "لكي تستطيع أن تهدي الناس إلى الطريق القويم وهو طريق المجد والخلود، عليك أن تقدر مجهوداتهم وتثني على نجاحهم مهما كان تافها لأن هذا يدفعهم إلى الأمام .. غير أنه لابد من المثابرة فبدون المثابرة .. تذهب الكلمات هباء .."

وما أجدرنا كمربين أن نتأمل هذا القول، فرب كلمة تشجيع تخلق من التلميذ شخصا يقدر المسئولية.

ويغبط كثير من الناس تلك الأسماء اللامعة التي تتألق في سماء الصحافة من المشاهير ويعتقدون أن أصحابها أدركوا توفيقهم في عالم

الصحافة بثمن بخس وأن الصحافة مهنة سهلة يسيرة يستطيع أن يقتحم أبوابها كل من هز اليراع، والواقع أن المهنة الصحافية على النقيض من ذلك تحتاج إلى استعداد عظيم ومواهب فذة، وليس الصحفي بالرجل ذي الأسلوب الرشيق والألفاظ الطنانة والعبارات المنضودة كاللآلئ، فقد انقد ذلك العهد وولى الأدبار!

صحيح أن الرجل هو الأسلوب كما يقول الناقد الفرنسي بوفون والصحفي هو الأسلوب كذلك، ولكن ينبغي لنا أن نفرق بين أسلوب وأسلوب، وكذلك ينبغي لنا أن نفرق بين الأسلوب اللغوي ومعناه الفني.

حقا يتطلب من الصحفي أن يكون فصيح العبارة حلو الإشارة يجري أسلوبه على ما اتفق من قواعد النحو والصرف ولكن الأسلوب الصحفي يتمثل في صياغة الخبر وعرض المقال وأبداء الرأي وإظهار الحجة وإخراج الجريدة، وبقدر ما أوتي الصحفي من مقدرة في هذه الجوانب يكون موفقا في حياته الصحفية.

وليست الصحافة تجارة، وليس الصحفي هو الموفق إلى الربح من هذه التجارة، إنما هي فن أولا وقبل كل شيءومن الناحية المادية ليست إلا ضرورة تحتمها ظروف الحياة. وقد كتب السير فليبس جيبس فصلا عن الصحافة ذكر فيه أن الصحفي الموفق هو الذي يضع العمل أولا ويفكر في الثمن ثانيا.

والصحافة عمل متواصل لا يعرف الكلال ولا الملال، ويتطلب أعصابا قوية وصبرا واحتمالا ويقظة وانتباها، والصحفي الموفق من عرف

كل ذلك وراعى كل ذلك وتحرى الدقة في الأخبار والقدرة على المصادر والتعدد في المراجع وإلا كان مصير جريدته الخراب.

والصحفي الموفق هو من ينسى ذاته في سبيل جريدته، فيتلون بلونها ويسمه بأذنها، وينظر بعينها، ويتكلم بلسانها ويشعر بمسؤولياتها، وقد صرح اللورد مرولاي في أحد المؤتمرات الصحفية إن الصحافي ليس خادما في مكتب، بل هو مدير الأفكار بوجه عام.

وقد ذكر الرئيس روزفلت في اجتماع صحفي أن "الصحفي الموفق خادم عمومي يشعر بالمسؤوليةالملقاة على عاتقه فقال ما نصه: "طالما كنت أقول لرجال الصحافة أن في أيديهم سلاحا من أحد الأسلحة في العصر الحديث ومن اللازم أن يستخدموه لأهداف حسنة لا لأغراض سيئة فمحرر الجريدة ومراسلها في هذا الزمان خادمان عامان، والصحفي الموفق من يشعر بالمسئولية في عمله، كما أشعر بالمسئولية في رياسة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية".

وأني أذكر أن المغفور له "أنطون الجميل باشا" سئل يوما ما عم جوهر الصحافة فأجاب أن قائم على ثلاثة أشياء حسن النية والخبرة والمقدرة، فسئل: من الصحفي الموفق؟ فقال: "أنه هو من يستفيد من قراءة كتاب التاريخ فإن فصوله مفصلة الصفحات والكاتب الموفق هو من اتسعت مداركه وامتدت قراءاته ولم يكن من قراءة الكتاب الواحد كالمثل اللاتيني".

والواقع أن "أنطون الجميل" قد أصاب لب الحقيقة فالصحافة

صاحبة الجلالة والصحافي سواء كان قائد الرأي العام ام لم يكن. ليس واحدا من حكام العالم كما تساءل كارليل الكاتب الإنجليزي المشهور.

فيجب أن يكون الصحافي واسع الأفق متفتح المدارك كثير الاطلاع على بينة من التيارات الفكرية والأدبية والعلمية والاجتماعية المعاصرة وغير المعاصرة: إذا ضمه مجلس من رجال الأدب استطاع أن يصول فيه وأن يجول، وإذا خالط رجال القانون استطاع أن يناقش وأن يعارض، وإذا تحدث إلى رجالات الطب استطاع أن يفهم وأن يستوعب، وصدق جديون حين قال: "أوثر ميل الاطلاع على جميع كنوز الهند".

وقد قال أحد علماء الاجتماع: أن الله يوجه الشعوب عن طريق بعض أفرادها، فإذا سلك هؤلاء الأفراد سيرة البر والخير سلكت شعوبهم طريق البر والسلام، وهكذا إذا سارت الصحافة سيرة قومية معتدلة فاصلة قادت الأمة إلى الشاطئ الأمان والسلام.

وقد لعبت الصحافة في الحرب العالمية الأولى والحرب الكبرى الأخيرة دورا هاما كبيرا، وكان لها أثر فعال في تحطيم أعصاب الشعوب المعادية ورفع الروح المعنوية للشعب، ويعتقد "ماك آرثر" صحة أثر الحرب السيكولوجية في الحصول على النصر في الحرب الأخيرة، وليس من شك في أن الصحافة الموفقة والإذاعة الموفقة قد ساهمتا بنصيب كبير لأحراز هذا النصر، فكانت تطبع طبعات خاصة لبلاد الأعداء وتحاول بكل ما أوتيت من جهد أن تفت في عضدها.

وقد فطن الإمبراطور نابليون العظيم إلى فائدة الصحافة في الحروب

فأنشأ إدارة خاصة لها، كما أن هتلر حاول من جانبه كل المحاولات الممكنة نشر عقيدته عن طريق الصحافة، وبذلت كل من وزارة الاستعلامات الأمريكية والبريطانية ما تستطيع من جهد في سبيل نشر دعايتها عن طريق الصحافة الموفقة. وما أروع قول أحد الكتاب الصحفيين إذ يقول:

"إن الصحافة غير التجارة أو الحياكة أو الخياطة لتكون رهن إدارة "الزبائن" في شكل ما يطلبونه من الأدوات أو الأثواب حتى النجار أو الحائك إذا رأى "زبونه" على ضلال أرشده إلى الصواب وبين له خطأه في طلبه بحالة من الاختيار في صناعته، فكيف بالصحافة وهي مدرسة تعليم وإرشاد، وأصحابها أساتذة الأمة وقادة أفكارها؟"

فالكاتب الحر يدعو إلى الحرية في الرأي والاستقلال في المبدأ ويعتقد أن الصحافة مدرسة كبيرة في هذا المضمار لأنها تهذب الشعب وتعلمه، فنحن في حاجة إلى استقلال في الفكر والاستقلال في العمل لكي لا نكون عبئا على الحكومة، وقد ركز الكاتب يوسف الخازن سبب توفيق جورجي زيدان في حياته الصحفية في قوله:

"كان سبب نجاحه الباهر حسن الإدارة واختيار المباحث وسهولة الإدارة وينطوي فيها أمور كثيرة مادية وإدارية كضبط المواعيد وحسن الطاعة وإتقان الوجه التجاري وحفظ الملازمة بين واجبات الصحفي وميول الجماهير، وكان رحمه الله- على حد تعبير نجله الكريم أميل زيدان أن يقبل النصائح والإرشادات فضلا أن يجعل أن يجعل سلوكه

الصحفي مثلا لأولاده ونعم المثال، وكان لا يسأم الكتابة ولا يسأم القراءة ينهب فرائضها ويغنم فوائدها غير محدود له طمع ... ".

فالصحفي الموفق إذن من لا يسأم القراءة والكتابة ويجد فيها راحة بعد عناء وسعادة بعد شقاء، وقد نصح أحد الكتاب الصحفيين الأوربيين لمن يهوى الصحافة والكتابة فاستيقظ قال: "إذا نازعتك نفسك يا بني في حب الصحافة والكتابة فاستيقظ والناس نيام وقد سكنت حركة الأحياء والأشياء، وسائل نفسك: هل تؤثر النوم أو الكتابة؟

فإن إجابتك نفسك إلى الكتابة فأنت فتى موهوب، فالصحافة مجد ونصب وعرق ودم ودموع ... "

وفي الصفحات القادمة نقدم طائفة من أقطاب العلم والأدب والفكر في الشرق والغرب بعضهم من المشهورين وبعضهم من المغمورين وبعضهم احتل ذكرهم المجلدات الضخمة من الكتب والصفحات الممتلئة من الصحف، وبعضهم لم يكن له نصيب يذكر من الشهرة والذيوع.

ونرجو أن يجد القارئ في هذه التراجم المقبلة متعة نحرص عليها ونهدف إليها وعلى الله قصد السبيل.

المؤلف

الأعشى

جاء في سيرة ابن هشام أنه هو ميمون بن قيس بن جندل بن شرحبيل ابن عوف ابن سعد، من بكر بن وائل من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وهو شاعر عربي ولد قبل الهجرة في العصر الجاهلي، ويعرف بالأعشى الأكبر وذلك لتمييزه عن غيره من الشعراء الذين يحملون هذا الاسم، ويكنى هذا الشاعر بأبي بصير، وهذه الكنية هي المشهورة، وورد اسمه في كتاب شعراء الجاهلية مقرونا بكنية أبي بصير، ويطلق عليه أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني "أعشى بني تغلب" ..

ولقب الشاعر "بالأعشى" لضعف بصره، وقد وصفه شريح بن السموءل حين أنقذه من الأسر بالأسير المضرور، وروى ابن قتيبة انه كان أعمى ويظهر أن أصيب بالعمى في أواخر حياته، والدليل على ذلك قوله في أحدى قصائده:

علـــى أنهـــا إذ رأتنـــي أقـــأ   د قالـــت بمـــا قـــد أراه بصـــيرا

وذهب المستشرق "هيفنز" إلى أنه سمي ب "الأعشى" لأن هذه الكلمة وردت في شعره. كما كان يطلق عليه "صناجة العرب" لفخامة شعره وجزالته، ولما كان يحدثه من الجلبة الموسيقية، إذ كان يترنم به صاحبه أو يتناقله المغنون.

وروى أبو الفرج الأصفهاني أن الأعشى تزوج امرأة من قبيلة "عنزة" من هزان، فلم يرتح إلى الحياة معها؛ ولم يستحسن أخلاقها فطلقها؛ وقال في ذلك شعرا منه هذه الأبيات:

فبيني حصان الفرج غير ذميمة ومرموقـــة فينـــا كـــذاك وواقعـــة

ويـــا جارتـــا بينـــي فإنـــك طالقـــة كـــذاك أمـــور النـــاس غـــاد وطارقـــة

ويستنتج من شعر الأعشى أنه كان له ابن يقود بعيره في أسفاره، كما كانت له ابنة يعرض عليها شعره، إذ كان قد ثقفها وعلمها ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختيار لجيد الكلام على حد تعبير الأصفهاني.

وقد نشأ الأعشى في قرية تسمى "منفوخة" في اليمامة غير أنه قام بعد ذلك بأسفار كثيرة وأشار هو نفسه إلى هذه الأسفار في شعره

وطولـــــت للمـــــال آفاقـــــه عمـــــان فحمـــــص فأورشـــــليم

أتيـــــت النجاشـــــي فـــــي داره وأرض النبـــــيط وأرض العجـــــم

كما قال كذلك في قصيدة أخرى:

قد حببت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في العجم ترددي وتسياري

وكان تطوافه سببا في كثرة معارفه وسعة ثقافته، اتصل بنصارى نجران وبأهل الحيرة، وشريح بن السموءل اليهودي صاحب تيماء، بحصنه الذي يقال له "الأبلق" إلى غير ذلك. وكان يذهب كل سنة إلى سوق عكاظ في الجزيرة العربية حيث ينشد أشعاره ويلتف حوله كثير من المعجبين.

وقد منحه أحد الولاة مائة من الأبل وكساه حللا وأعطاه كرشا مدبوغة مملؤة عنبرا وقال له: إياك أن تخدع عما فيها، وفي هذا يقول "الأعشى"، "فأتيت بها الحيرة فبعتها بثلاثمائة ناقة حمراء .... "

واتصل الأعشى بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة ومدحه ببعض عيون شعره ومن ذلك قوله المشهور:

أنت خير من ألف ألف من الناس إذا مـا كسـيت وجـوه الرجـال

وأعجب النعمان بشعره فقال له يوما: لعلك تستعيد على شعرك؟

قال: أحبسني في بيت حتى أقول، فحبسه النعمان فأنشأ الأعشى القصيدة التي مطلعها:

أأزمعـت مـن آل ليلـى ابتكـارا وشـطت علـى ذي هـوى أن تـزار

ونظم الأعشى في الأسود بن المنذر أخي النعمان كذلك جملة من القصائد أشهرها تلك اللامية التي عدها أكثر الأدباء معلقته:

مـا بكـاء الكبيـر بـالأطلال وسـؤالي ومـا تـرد سـؤالي؟

كما أتصل الأعشى كذلك بملوك نجران أصحاب الدير العظيم المزين بالفسيفساء وكثير من الزخارف وحوله الأشجار والغدران.

ويمتاز شعر الأعشى بمعارفه الواسعة وثقافته الكبيرة، واستخدام بعض الألفاظ الفارسية التي عرفها في أثناء رحلاته الطويلة إلى الحيرة وما حولها من البلاد، كما وصف سيل العرم والقصر الأبلق على ما يرويه أهل عصره، وأمتاز بإكثاره من وصف الخمر وما إليها من نديم وساق وقنينة

وعود، واستخدم الأوزان الخفيفة، أطال في قصائده إطالة لم توهن من أسلوبه أو تقل من قيمته، واستخدم القصص في شعره على النحو الذي فعله أمرؤ القيس الشاعر أمير كندة فذكر قصة السموءل بن عادياء مع امرئ القيس، وذكر قصة حبس النعمان بن المنذر بساباط ثم قتله تحت أرجل الفيل بأمر كسرى أبرويز، ونظم الشعر في الغزل حتى أنه استهلجميع قصائده بهذا اللون الذي فشا حتى في قصائد الهجاء، وترة يتغنى بهريرة التي شبب بها في مطلع لاميته:

ودع هريـــرة إن الركـــب مرتحـــل وهـــل تطيـــق وداعـــا أيهـــا الرجـــل؟

ونظم الأعشى بعض قصائده في الحكمة، كما كانت تأتي عرضا في بعض قصائده ومثال ذلك قوله:

ولســت بــالأكثر مــنهم حصــى وإنمـــــا العـــــزة للكـــــاثر

وقوله كذلك:

وفــي ذلــك مــا يســتفيد الفتــى وأي امـــرئ لا يلاقـــي الشـــرورا

وقال الشعبي: الأعشى أغزل الناس في بيت وأخنثهم في بيت وأشجعهم في بيت، فلما سئل عن هذه الأبيات قال: إن أغزل بيت هو:

غـراء فرعـاء مصـقول عوارضـها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

وأما أخنث بيت فهو قوله:

قالـت هريـرة لمـا جئـت زائرهـا ويلـي عليـك وويلـي منـك يـا رجـل

وأما أشجع بيت فهو:

قـالوا الطـراد فقلنـا تلـك عادتنـا　　أو تنزلـــون فأنـــا معشـــر نـــزل

وأقبل مروان بن أبي حفصة الشاعر العباسي على يونس النحوي وعرض عليه بعض شعره فأعجب به وقال: أنت أشعر من الأعشى، فقال مروان: لقد سؤتني إذ قدمتني عليه!

أما أبو الفرج الأصفهاني فقد عده في كتاب الأغاني أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم وتقدم على سائرهم كما ذكرنا المرزباني في كتابه "الموشح": سئل الأصمعي عنه: أحل هو؟ قال: لا ليس بفحل. قال المرزباني: يعني لا مزية له على غيره.

ودخل الأخطل على عبد الملك بن مروان وقد شرب خمرا وعنده الشعبي فلما رآه قال يا شعبي .. غلب الأخطل الشعراء جميعا حين قال:

وتظـــل تنصـــفنا بهـــا قرويـــة　　أبريقهـــــا برقاعـــــة ملثـــــوم

فـإذا تعـاورت الأكـف زجاجهـا　　نفخـــت فشـــو رياحهـــا المزكـــوم

فقال الأخطل: سمعت بمثل هذا يا شعبي؟ فقال إذا أمنتك فأشعر منك الذي يقول:

مـن اللائـي حملـن علـى المطايـا　　كـــريح المســـك تســـتل الزكامـــا

فقال الأخطل: ويحك ... ومن يقول هذا؟ قلت الأعشى: أعشى بن قيس بن ثعلبه فقال: قدوس قدوس غلب الأعشى الشعراء جميعا.

وهكذا أختلف آراء النقاد\ إزاء شعره، بيد أن الأعشى في الواقع

يعتبر من أبرع الشعراء في العصر الجاهلي واعتبره أبو عبيدة من أصحاب المعلقات وجعله الرابع بينهم. بل لقد ظل محافظا على مكانته الأدبية حتى بعد ظهور الإسلام، إذ روى أبو الفرج الأصفهاني أن حسانا سئل من أشعر الناس؟ فقال: أشاعر بعينه؟ قال: بل قبيلة ... قال: الرزق من بني قيس بن ثعلبة. وروى أيضا أن رجلا من بني كلاب خرج يختال وينادي من يفاخرني، ومن ينافرني ببني عامر بن صعصعة فرسانا وشعراء وعددا وفعالا؟ فأجابه رجل: أنا. قال بمن؟ قال ببني قيس بن ثعلبة" فولى الأول هاربا. وقد كان الأعشى على رأسهم "أي بني قيس بن ثعلبة".

وخافت قريس إسلام الأعشى، وكان ذلك قبل فتح مكة، فقال له أبو سفيان وهو في طريقه إلى الرسول الكريم: "نحن وهو في هدنة فتأخذ مائة من الأبل، وترجع إلي بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا وإن ظهر علينا أتيته".

فأخذ مائة من الأبل وقفل راجعا إلى أهله، فألقاه بعيره قريبا من قريته فقتل عام ٧هـ، ٦٢٩ م نتيجة لجموحه وهياجه وعدم تمكن الأعشى من التحكم في عنانة. وكان قد أعد قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وجاء فيها:

ألـم تغـتمض عينـاك ليلـة أرمـدا　　　وعـادك مـا عـاد السـليم المسـهدا

كما جاء فيها:

فاليـت لا أرثـي لهـا مـن كلالـة　　　ولا مـن حفـى حتـى تلاقـي محمـدا
نبـي يـرى مـالا تـرون وذكـره　　　أغـار لعمـري فـي الـبلاد وأنجـدا

ويظهر أن الأعشى كان يطمع في عطايا الرسول الكريم، إذ صرح في آخر مدحته بحبه للمال وحاجته إلى الحصول عليه فقال:

وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع وليدا وكهلا حين شبت وأمردا

وللأعشى مطولتان أختلف النقاد في اختيار المعلقة منهما. وهاتاناالمطولتان هما مطولة:

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

والأخرى:

ما بكاء الكبير في الأطلال وسؤالي وما يرد سؤالي؟

ويقول ابن النديم في الفهرست: إن للأعشى ديوانا كبيرة أكثره في المدح يتخلله شيء من الغزل والخمريات جمعه وشرحه أبو العباس ثعلب. وقد نقلت قصائد وأبيات كثيرة منه في كتب الأدب المختلفة ونشر المستشرق الفرنسي "دي ساسي" لامية الأعشى السابقة في باريس عام ١٨٢٦، كما نشر المستشرق "جابر" قصيدة "ودع هريرة" عام ١٨٧٥ في مدينة "ليبسك" ونشر "ثوربكة" القصية الدالية في مدح النبي ضمن مجموعة نشرها في ليبسك أيضا عام ١٨٧٥، ونشر ديوان الأعشى عام ١٢٨ في مجموعة المستشرق جيب تحت عنوان "الصبح المنير في شعر أبي بصير" في مدينة فينا.

وللديوان طبعة قديمة قام بها جماعة من العلماء وصدرت عن مطبعة التقدم.

ونشر أبو زيد القرشي في كتابه "جمهرة أشعار العرب" مجموعة من شعره كما أورد ابن قتيبة في الشعر والشعراء بعضا من شعره، وكذلك فعل عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب وأبو الفرج الأصفهاني في الأغاني، والأب لويس شيخو في كتاب "شعراء النصرانية" بيروت عام ١٨٩٠.

ولعل خير ما نختتم به هذا البحث أن ردد ما ذكره عبد الملك بن مروان لمؤدب ابنه "أدبهم برواية الأعشى، فإنه– قاتله الله– ما كان أعذب بحره، وأصلب صخره!"

أمامه بنت الحارث

أمامه بنت الحارث سيدة من أكرم السيدات في الجاهلية، وأعلاهن منزلة- وأرفعهن ذكرا، فقد اشتهرت قبل الإسلام بعلو كعبها في العلم والأدب، وكانت فضلا عن هذا سيدة حصيفة الرأي ثاقبة الفكر تعرف واجبات الأسرة حق المعرفة، وتعرف حقوق كل فرد فيها ودعائم سعادتها وهنائها وأسباب اضطرابها وشقائها وعوامل خيرها ورخائها، ودواعي شرها ومنغصاتها.

وقد تزوجت ابنتها أم أياس الحارث بن عمرو أحد سادات العرب فنصحتها نصيحة ثمينة غالية قبل أن تذهب إلى زوجها تعد من أروع ما قيل في نصح العروس قبل زفافها، وقد جمعت في نصحها بين جودة العبارة ودقة الدراسة، وعمق الفكرة. وتعتبر نصيحتها ثمرة تجارب طويلة وخلاصة حال سعيدة عاشتها أمها مع زوجها عوف الشيباني أحد كبار قبيلة شيبان في الجاهلية.

ومما قالته أمامه بنت الحارث في هذه النصيحة قولها: "أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل" وتشير في ذلك إلى أن النصيحة لو كانت للتوجيه إلى الأدب لكانت ابنتها أحرى الناس بعلم الاستماع إليها لأنها ربيبة الأدب والخلق. ولكنها تذكرة لها على ذلك. ثم قالت أمامه: ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس،

ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال" ..

ففي الوقت الذي تشيد فيه أمامه بكرم أصل أبنتها وثرائها تشيد بحاجة المرأة إلى الرجل الذي خلقت له وخلق لها.

وتستطرد أمامه بنت الحارث قائلة: أي بنية أنك فارقت الجو الذي فيه خرجت وخلفت العش الذي منه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبا فكوني له أمة يكن لك عبدا"

وتمضي أمامه بنت الحارث تنصح لابنتها قائلة: "يا بنية، أحملي عني خصال تكن لك ذخرا وذكرا: "الصحبة بالقناعة والمعاونة بحسن السمع والطاعة– والتعهد لموقع عينيه والتفقد لموقع أنفه– فلا تقع عينه منك على قبيح– ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود. والتفقد لوقت طعامه والهدوء عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير.

ولا تفشي له سرا، ولا تعصي له أمرا فإنك إن أفشيت سره، لم تأمني غدره وإن عصيت أمره أوغرت صدره"

وفي هذه الفقرة تشير أمامه إلى وجوب قناعة الزوجة بمعيشة زوجها، وإطاعة أوامره وأجابه مطالبه، وضرورة العناية بنظافتها ونظافة بيتها، والاهتمام بزينتها وطيبها ورعاية الزوج في طعامه وشرابه، والإشراف على أبنائه وتوجيه خدمه، وعدم الإسراف والتبذير وعدم إفشاء أسراره أو

عصيان أمره مما يترتب عليه عواقب وخيمة تهدد الحياة الزوجية السعيدة..

وتختتم أمامه بنت الحارث نصيحتها لأبنتها بقولها: "اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحا والاكتئاب عنده إن كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والأخرى من التكدير وكوني أشد ما تكونين إعظاما. يكن أشد لك أكراما– وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له موافقة.

وأعلمي أنه لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت، والله يخير لك."

وهكذا عالجت أمامه بنت الحارث في هذه العبارة أسس سعادة الأسرة ووفاق الزوجين في أسلوب حلو جميل وحكمة نيرة حصيفة، فكلما فرحت الزوجة لفرح زوجها وحزنت لحزنه، وتكدرت لكدره، وتجاوبت معه في بأسائه وضرائه اشتد حرصه عليها، وهذه ناحية نفسية تنبه إليها علماء النفس والاجتماع في العصر الحديث لإرشاد الزوجة إلى الحياة الزوجية الهانئة الرغيدة.

ومن العجب أن تنطق أمامه بنت الحارث بهذه الوصية الذهبية منذ نحو ألف وأربعمائة عام وتظل حتى اليوم دستورا حكيما لسعادة الأسرة، وسجلا خالدا يجب أن تحرص عليه كل عروس حتى تمضي في حياتها الزوجية فوق طريق مفروش بالورود والرياحين تقطف فيه زهور الأماني، وتجني فيه ثمرات المحبة والرباط المقدس.

من القرنين الأول والثاني الهجريين

بين العمرين

لعل أهم ميزة تميز الإسلام أنه دين السماحة والعدالة والتضامن الاجتماعي والتكافل بين الرعية. ولا يحرص على شيءقدر حرصه على الفضيلة والرحمة بالضعفاء والرفق بالفقراء، وجلب السعادةوالهناء إلى البائسين، ولا ينفر من شيء قدر نفوره من الرذيلة والاستغلال والسيطرة.

وعلى هذا الهدى وعبر هذا السبيل وإلى هذا الهدف سعى السلف الصالح من المسلمين وكان الرسول الكريم المثل الأعلى في سماحة الخلق، وسماحة النفس وكرم الطبع والحدب على الرعية.

واشتهر من خلفاء المسلمين أميران طار صيتهما في الآفاق في توخي العدالة الاجتماعية في أروع صورها وأجمل معارضها وهما الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب والخليفة الزاهد العابد عمر بن عبدالعزيز.

وقد أوضح عمر بن الخطاب للناس مذهبه في العدالة الاجتماعية وحرصه على ألا يؤثر بالمال فريقا على فريق أو طائفة على طائفة في خطبته التي جاء فيها: "والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق من أحد به، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدا مملوكا ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى، وقسمنا من رسول الله، فالرجل وبلاده في الإسلام، والرجل وقومه في الإسلام والرجل

وعتاده في الإسلام".

وفي خطبة أخرى قال: "لكم علي ألا أجتبي شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي إلا يخرج مني إلا في حقه، ولكم علي أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسد ثغوركم، ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم في ثغوركم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم".

وهكذا رسم الفاروق عمر بن الخطاب منهجه في العدالة الاجتماعية وعدم إيثار فريق بالمال دون فريق إلا بمقدار دوره في خدمة الإسلام والعمل على دعم أركانه وصيانة بنيانه.

ولما انتصر المسلمون على كسرى وتفووضت دعائم ملكه- نقل المسلمون نفائس قصره إلى المدينة، وهناك وقف عبدالله بن الأرقم وخاطب الفاروق عمر قائلا: اجعلها في بيت المال حتى نقسمها فقال عمر بن الخطاب والله لا يظلها سقف بيت دون السماء.

م ٢ –شخصيات مشهورة

فتركت هذه النفائس الغالية وهذه الذخائر الثمينة بين صفتي المسجد صفة النساء وصفة الرجال، وبات القوم يحرسونها حتى تنفس الصبح وانبلج النهار فكشف عمر بن الخطاب عنها الغطاء، فرأى الذهب والفضة، ففاضت عيناه بالدموع وانسابت على خديه، فقال له عبدالرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، فو الله إن هذا ليوم شكر ويوم فرح وسرور؟ فقال عمر بن الخطاب: لا والله ما فتح الله على

قوم هذا قط إلا جعل بأسهم بينهم وألقيت بينهم العداوة والبغضاء.

ونهض عمر بن الخطاب وشرع يقسم الغنائم بين المسلمين:

ولقد شاء القدر أن يحقق فراسة عمر بن الخطاب فلم يلبث أن تغير بعض الصحابة. فالزبير وطلحة وعبدالرحمن بن عوف اقتنوا الضياع والدور وأبنتي سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، فرفع سمكها ووسع فضائها وجعل أعلاها شرفات.

ولم تلبث أن اندلعت الفتنة الكبرى التي أطاحت بخلافة عثمان بن عفان وحينئذ تحققت فراسة عمر بن الخطاب في أن المال يبث العداوة والبغضاء.

ومن أجل ذلك كان عمر بن الخطاب يحرص على إنفاق الأموال في وجوه الخير والبر والقضاء على الفوارق بين الطبقات وكان يحاسب ولاته حسابا عسيرا في تطبيق ذلك ويسأل عن مصادر ثروتهم وأسباب غناهم أو رفعتهم.

وقد حدث أن ولى أبا هريرة على البحرين فازدادا ثراؤه، فطفق يضربه بالدرة حتى أدمى جسده.

وفي أثناء ذلك كله كان يسهر عمر بن الخطاب على أمور الرعية وتتبع أخبارها في آناء الليل وأطراف النهار، وفرض مالا لكل مولود في الإسلام، ورفع الجزية عن الشيوخ الفقراء المسنين الذين لا يستطيعون أداءها.

وروى الطبري أنه كان لا يأكل نقيا ولا يلبس رقيقا، ولا يتخذ بابا دون حاجات الناسكما روى أنه خطب الناس يوما فقال:

يا أيها الناس إني والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم "جلودكم" ولا ليأخذوا أعشاركم ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه، فو الذي نفس عمر بيده لأقصينه منه، فوثب عمرو بن العاص إذ ذاك وقال: أرايتك يا أمير المؤمنين إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيد، وأدب بعض رعيته أنك لتقصينه؟ فقال عمر: أي والذي نفس عمر بيده لأقصينه، وكيف لا أقصيه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصي من نفسه؟ ثم بين لعمرو ما يخشاه علىالرعية من عنف الأمراء وظلم الولاه، فقال: ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم.

وعنالأسود بن أبي يزيد قال: كان الوفد إذا قدم على عمر رضي الله تعالى عنه سأل عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون نعم .. فيقول هل يعود العبد؟ فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ قال قالوا لخصلة منه– لا– عزلة.

***

واحتذى عمر بن عبد العزيز حذو عمر بن الخطاب في تطبيق العدالة الاجتماعية ونصرة الضعيف والأخذ بيد المظلوم وتوزيع الأموال على المحتاجين والفقراء والمساكين ومساءلة الولاة عن مصادر ثرواتهم

وموارد غناهم.

وحدث أن جيء إلى سليمان بن عبد الملك بهدايا كثيرة في آنية من الذهب فمر عليها ومعه عمر بن عبدالعزيز وكلما مر سليمان بصنف منها التفت إلى عمر وقال: كيف ترى هذا يا بن عبدالعزيز؟ فقال عمر: يا أمير المؤمنين، إنما هو متاع الحياة الدنيا، فقال سليمان: فو الله لو وليته ما أنت صانع فيه؟ قال عمر اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء، فقال سليمان: اللهم أشهد، وقال عمر ذات يوم لمولاه مزاحم: أني قد اشتهيت الحج فهل عندك شيء؟ فقال مزاحم عندي بضعة عشر دينارا فقال عمر: وما تقع مني؟ ثم مكث مزاحم قليلا وقال لعمر يا أمير المؤمنين تجهز فقد جاءنا مال: سبعة عشر ألف دينار من بعض أموال بني مروان فقال عمر: أجعلها في بيت المال، فإن تكن حلالا، فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حراما فكافانا ما أصابنا فيها؟ فشق ذلك على مزاحم ورأى عمر ذلك فقال: ويحك يا مزاحم لا يكبرن عليك شيء صنعته لله فإن لي نفسا توافقه، ولم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هو أرفع منها حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة ..

وحدث أن ضربوا لعمر بن عبدالعزيز نقودا فكتبوا عليها "أمر عمر بالوفاء" فلما رآها عمر غضب وقال: كسروها وأكتبوا أمر الله بالوفاء والعدل.

وكتب إليه بعض عماله يقول: لقد أضررت ببيت المال، فرد عليه

عمر بما معناه: أعط ما فيه فإن لم يبق فيه شيء فلا ضير ..

وهكذا يتضح لنا أن عمر بن عبدالعزيز لم يكن يحرص على اكتناز المال أو أنفاقه في ملاذه أو على أعوانه ورفاقه، إنما كان يتصرف به في الخير أو البر ومعونة المحتاجين البائسين، وكان يعتقد أن يرد المظالم هو المخرج من كل مأزق، والمنقذ من كل هلاك.

يروى في هذا أن سليمان بن عبدالملك خرج إلى بعض البوادي فارتفعت سحابة فجاءت برعد وبرق وصواعق ففزع سليمان ونادى على عمر بن عبدالعزيز فقال: يا عمر، يا عمر .. وكان بنو أمية إذا أصابتهم شدة فزعوا إليه فأجاب عمر، ها أنا ذا وأقبل عليه، فقال له سليمان: ألا ترى؟ فقال عمر: يا أمير المؤمنين، إنما هذا صوت نعمة، فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فدفع إليه سليمان مائة ألف درهم قائلا: خذ هذه وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال سليمان: وما هو؟

فقال عمر ما معناه: قوم شاركوا في ظلم الناس؟ فاتعظ سليمان وجلس فرد المظالم.

هذه صورة خاطفة من عدالة الإسلام وإنصاف الخلفاء المسلمين، وهي تدل على ثورتنا الاجتماعية الحاضرة تستمد مبادئها من تعاليم الإسلام وأنها منزهة عن الهوى ومن وحي الدين الحنيف، وتهدف إلى العدالة والمساواة بين جميع أبناء الوطن الواحد، إذ يجب أن يكون لكل فرد من أفراد هذه الأمة الفرصة التي لأي فرد آخر فلا تمييز ولا استغلال

بأي معنى من معاني الاستغلال، ولا سيطرة بأي معنى من معاني السيطرة، كما يهدف إلى ألا تخضع طبقة أو يخضع أي قسم من المجتمع لطبقة أخرى أو قسم آخر حتى نتخلص من تحكم الإنسان في أخيه الإنسان واستغلال المجتمع بعضه لبعض أو استغلال الأقلية في المجتمع للأغلبية فيه.

وكل هذه المبادئ القويمة والأهداف النبيلة من لحمة الإسلام وسداه وصفوته ولبابه، ومن سنن السلف الصالح ونهج خلفاء الإسلام الراشدين، ومنهم الفاروق عمر بن الخطاب ثانيهم، وعمر بن عبدالعزيز خامسهم.

بشار بن برد

هو شاعر من شعراء العصر العباسي، وزعيم المحدثين منهم واسمه بشار المرغث بن برد بن يرجوخ العقيلي ولاء، البصري المنشأ، وأصل أبائه من فرس طخارستان من سبي الملهب بن أبي صفرة، ونشأ أبواه بين بني عقيل بن كعب، ثم أصبح بشار عتيقا لهم، وتربى في منازلهم، واختلف إلى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر.

وكان بشار أكمه أي ولد كفيف البصر، جاحظ العينين؛ قد تغشاهم لحم أحمر وكان مجدور الوجه، قبيح المنظر، بشع الصورة مفرط الطول، ضخم الجثة ولم يكن يحفل بالحكام أو يخاف أحدا من ذوي سلطان، وكان يعتقد أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وكان شديد التعصب للفرس وشعوبيا متعصبا.

وقد برع في الشعر منذ نعومة أظافره، ويروى أنه كان ينظم بعض شعر الهجاء، فإذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه وكان "طيانا" يعمل اللبن من الطين فشكو إليه، فينهال عليه أبوه ضربا ولطما وإهانة وسبا، فكانت أمه تقول له: كم تضرب هذا الصبي الصغير الضرير، أما ترحمه؟ فيقول بلى، والله أني لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلي؛ فيسمعه بشار فيطمع فيه، فيقول: يا أبت إن هذا الذي يشكونه إليك مني هو قولي الشعر، وأني إن أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلي، فإذا شكوني فقل لهم: أليس الله عز وجل يقول: "ليس على الأعمى حرج" فلما أعادوا شكواهم قال لهم ذلك، فانصرفوا وهم يقولون: "فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار!".

وقد نشأ بشار في البادية فتأثر بفصاحة الأعراب وبلاغتهم مما كان له أبعد الأثر في دقة أسلوبه، وتحديد معانيه، وسعة ألفاظه وقيل له ذات يوم: ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم، وشك فيه وليس في شعرك ما يشك فيه فقال: ومن أين يأتيني الخطأ؟ ولدت منها، ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت. فمن أين يأتيني الخطأ؟

وعندما انتشر بين الناس خبر مجونه شرعوا يوقعون به لدى ولي

الأمر حتى يتخلصوا من شره، ويتجنبوا خطره، ففر بشار من البصرة حيث أتصل ببعض أمراء بني أمية وظل يكيل لهم المدح، وينظم لهم القصائد وعاش بين أكنافهم فترة طويلة حتى سقطت الدولة الأموية وقامت على أنقاضها الدولة العباسية، وعندئذ اضطرب عيش بشار وارتبك في حياته، وتشاء الظروف أن يموت في هذا الوقت واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد وهما من الولاة الذين كانوا يتربصون به الدوائر. حتى يلقوه إلى التهلكة، فيعود بشار بن برد إلى البصرة مرة أخرى، وقد زال عنه اضطرابه، بيد أن أقاويل الناس ظلت تطارده حيثما حل وأينما كان حتى قتل عام ١٦٨هـ وقد نيف على التسعين وقيل وهو الراجح وعمره سبعون سنة.

كان بشار شاعرا مطبوعا، وكان العالم الأصمعي يعجب بشعره لكثرة فنونه وسعة تصرفه ويقول: "كان بشار مطبوعا لا يكلف طبيعته شيئا متعذرا". أما الأخفش وسيبويه وهما من أعلام اللغة فقد كانا يستشهدان بشعره خوفا من هجائه، كما جاء في الجزء الثالث من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني "ج ٢٠٩/٣، ٢١٠ طبعة دار الكتب"

وقد أجمع رواة الشعر العباسي ونقاده على انب شارا هو رأس المحدثين من الشعراء في العصر العباسي، وأسبقهم إلى معاطاة البديع، وطرق أبواب المجون والهجاء، كما كان يمتاز بغزل حضري رقيق يسيل رقة وينبض لوعة وحبا كقوله:

لـم يطـل ليلـي ولكـن لـم أنـم   ونفـى عنـي الكـرى طيـف ألـم

وإذا قلــت لهــا جــودي لنــا خرجــت بالصــمت عــن لا ونعــم
رفهــي يــا عبــد عنــي واعلمــي أننــي يــا عبــد مــن لحــم ودم
إن فــي بــردي جســما نــاحلا لــو توكــأت عليــه لانهــدم

فهذه الأبيات تبلغ درجة كبيرة من الرقة والجمال، فهو يصف ما يعانيه في جب صاحبته، حتى إن طيفها يبعد عن جفونه النوم، وينفض عن عينيه الكرى، ثم يذكر جفاءها وصدها، وكيف أنها تتدلل عليه، ثم يأتي في البيت الأخير بمعنى جديد فيه شيء من الخيال، فهو يحس أن جسمه قد صار ناحلا هزيلا، لا يتحمل أن تتوكأ صاحبته عليه برغم ما كان مشهورا عنه ضخامة الجثة وطول القامة وعلو الهامة.

وفي موضع آخر يقول بشار مخاطبا قومه، شارحا حبه وهيامه، ولوعته وجواه:

يـا قـوم أذنـي لـبعض الحـي عاشـقة والأذن تعشــق قبــل العــين أحيانــا
فقلـت أحسـنت إن الشـمس طالعـة أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا
فأســمعيني صــوتا مطربــا هزجــا يزيــد صــبا محبــا فيــك أشــجانا
يــا ليتنــي كنــت تفاحــا مفلجــه أو كنت مـن قضـب الريحـان ريحانا
حتـى إذا وجـدت ريحـي فأعجبهـا ونحــن فــي خلــوة مثلــت إنســانا
فحركـت عودهـا ثـم انثنـت طربـا تشــدو بــه ثــم لا تخفيــه كتمانــا
وأصــبحت أطــوع خلــق الله كلهــم لأكثر الخلق لي في الحب عصيانا
يـا قـوم أذنـي لـبعض الحـي عاشـقة والأذن تعشــق قبــل العــين أحيانــا

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا
هــل مــن دواء لمشــغوف بجاريــة يلقــي بلقيانهــا روحــا وريحانــا؟

فهذه الصورة التي تتراءى في تلك الأبيات صورة تختلف عن الصور التي كنا قد عهدناها في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

وبهذا الشعر الرقيق نقدر كيف كان شبان البصرة ونساؤها وخلفاؤها يولعون بشعره ويتغنون به، وقد يخرج بشعره وتشبيبه عن الجيد المألوف عند أهل زمانه حتى أنكرر عليه العلماء والمتورعون ذلك إنكارا ولا سيما عندما أدركوا أثره في فتيان البصرة، وقد نهاه الخليفة المهدي عن التشبيب فنظم بشار قصيدة يشير إلى ذلك ويقول:

يــــا منظـــرا حســـنا رأيتـــه مـــن وجـــه جاريـــة فديتـــه
بعثــــت إلــــي تســــومني بــــرد الشــــباب وقــــد طويتــــه
والله رب محمــــــــــــــد مــــا إن غــــدرت ولا نويتــــه
أمســــكت عنــــك وربمــــا عــــرض الــــبلاء ومــــا ابتغيتــــه
إن الخليفــــة قــــد أبــــى وإذا أبــــى شــــيئا أبيتــــه
ونهــــاني الملــــك الهمــــا م عــــن النســــاء ومــــا عصــــيته
لا بــــل وفيــــت فلــــم أضــــع عهــــدا ولا رأيــــا رأيتــــه
ثــم أنشــد مــا مدحــه بــه بــلا تشــــبيب فحرمــــه الجــــائزة:

والحق أن بشار هو أول من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين وفتق عن المعاني الدقيقة والصور اللطيفة، فشعره حد وسط

بين الشعر القديم والشعر الحديث.

ولبشار من المعاني المبتكرة والأخيلة البديعة في فنون الشعر ما سار بذكره الركبان، وفي ذلك يقول الجاحظ في كتابه "البيان والتبين" كان بشار شاعرا خطيبا صاحب منثور وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع، المتغنين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه، وقد طرق بشار كل فنون الشعر التي عرفت قبله وأربى عليها وغلب عليها الهجاء والتشبيب بالنساء، والمجون، وقد صرح بعقائد فاسدة في شعره، ورأى أن هذا يحببه إلى طبقة الخلعاء، فتمادى في غيه وهجائه وأصبح مولعا بهذا اللون، قليل المبالاة بالدين، متهما بالزندقة لم يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة، فمقته العلماء والمتكلمون.

وكان واصل بن عطاء يقول: "إن من أخدع حبائل الشيطان لكلمات لهذا الأعمى الملحد" غير أن نبوغه وبراعته ودعابته شفعت له لدى كثير من رؤساء الموالي فعاش بقية عمره في البصرة حتى لاقى حتفه كما سبق أن ذكرنا آنفا.

وهاجى بشار حماد عجرد واحتدم اللجاج والقذف بالأقوال المقذعة بينهما، وظهر حماد عليه في بعض أهاجيه، وآلمه ذلك وإن لم يسقط منزلته.

كما هاجى بشار بن برد غيره من أقطاب الشعر في هذه الفترة، وقامت بينه وبين معاصريه مساجلات أدبية ذكر بعضها في كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني.

ولبشار بن برد حكم ونصائح غالية، تدل على خبرة بالناس ودراية بشئون الحياة كقوله:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فأنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟

وقوله في قصيدة أخرى:

خليلي أن المال ليس بنافع إذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت علي محلة تيممن أخرى ما علي مضيق
وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد سوق
وما ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

فهذه الأبيات تدل على جمال المعنى وتمتاز برقة الأسلوب، وعمق الفكرة وتوضح القلية الجديدة الممتازة في ذلك العصر.

ومن أروع صوره الرائعة تلك الصورة البديعة الدقيقة الناطقة التي رسمها بشار بن برد برغم ذهاب بصره للجيش في أثناء المعركة وقت أن يحمى وطيس القتال.

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فنحن نكاد نرى ونكاد نلمس تلك الصورة الحية التي صورها لنا بشار فأحسن تصويرها، فبشار قد ولد أعمى، فما نظر إلى الدنيا قط،

ومع ذلك فإنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض كأنما أحاط بكل شيء منها علما، حتى إن البصراء يعجزون عن الإتيان بمثله.

ومن أروع معانيه كذلك قوله:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ولك أدر أن الجود من كفه يعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأنفقت ما عندي

فعقلية بشار الجديدة أنتجت لنا هذه الأخيلة الواسعة الممتازة، وتلك الأفكار البديعة التي تبرز عمق الفكرة، وتجعلنا نلمس بوضوح تلك المعالم الحضارية التي تظهر في شعره ونلمس الفرق الشاسع بين هذا الشعر الحضري وبين الشعر الجاهلي مثلا.

ومن المعاني الفلسفية الرائعة التي افترعها ذهن بشار افتراعا، قوله وهو يتحدث عن ممدوحة:

ليس يعطيك للرجاء أو الخو ف ولكن يلذ طعم العطاء

فهنا جعل للعطاء لذة لا تدانيها لذة، وسعادة لا تعدلها سعادة.

وهذا البيت يمثل العقلية الجديدة التي تفصل بين الشيء وغايته، وتحوله من وجهته المادية إلى وجهته النفسية.

ويقول في موضع آخر:

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني إليك فإن الحب أقصاني؟

فهذا معنى جديد مبتكر لم يكن متداولا من قبل، وأين مثل هذا بالقياس إلى البيت الآتي:

وعـــي الفعـــال كعـــي المقـــال وفـي الصـمت عـي كعـي الكلـم

فبشار لا يخصص العي بالكلام بل يجعله في المقال والفعال، بل يذهب إلى أبعد من هذا فيقيم في الصمت عيا يقابل عي الكلام.

وبرغم معاني بشار الرائعة التي أتى بها في شعره، فإنه كان في بعض الأحيان يهبط إلى هوة عميقة من الإسفاف، وعن خلاد قال: قلت لبشار: أنك لتجيء بالشعر المتفاوت، قال: وما ذاك؟ قلت: أنك تقول شعرا تنير به النقع وتخلع به القلوب، مثل قولك:

إذا مـا غضـبنا غضـبة مضـريه هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا مـا أعرنـا سـيدا مـن قبيلـة ذرا منبـر صـلى علينـا وسـلما

إلى أن تقول:

ربابـــة ربـــة البيـــت تصـــب الخـــل فـــي الزيـــت

لهـــا عشـــر دجاجـــات وديـــك حســـن الصـــوت

فقال: لكل شيء وجه وموضع، فالقول الأول جد، وهذا قلته في جاريتي ربابة، وأنا لا أكل البيض من السوق، وربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع البيض وتحفظه، فهذا عندها أحسن من قوله "قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل" عندك.

كما لام كثير من النقاد بشار بن برد لقوله:

إن سـلمى خلقـت مـن قصـب قصـب السـكر لا عظـم الجمـل

وإذا أدنيـت منهـا بصـلا غلـب المسـك علـى ريـح البصـل

فكان يعتذر أنه قال ذلك في صباه أو من اجل المزاح.

وكان بشار يمتاز برقة الشعور برغم ما يبدو عليه من غلاظة في الطبع وجهامة في الصوت، وبشاعة في المنظر، ويروي الرواة أن أبن أخيه مر به ومعه قوم فقال لرجل معه: من هذا؟ فقال أبن أخيك .. فقال: أشهد أن أصحابه أنذال قال: وكيف عرفت ذلك؟ قال: ليست لهم فعال.

كما يروي الرواة أن أبا دهمان الغلالى قال: مررت ببشار يوما وهو جالس على بابه وحده، وليس معه خلق، وبيده مخصرة يلعب بها، وقدامه طبق فيه تفاح، وأترج، فلما رأيته وليس عنده أحد، جئت قليلا قليلا وهو كاف يده حتى مددت يدي لأتناول منه، فرفع القضيب وضرب به يدي ضربة كاد يكسرها فقلت له: قطع الله يدك يا بن الفاعلة .. أنت الآن أعمى، فقال: يا أحمق فأين الحس؟

ويروى كذلك أن أحدهم سأله ذات يوم عن منزل أحد الأشخاص فجعل بشار يفهمه وهو لا يفهم فأخذ بيده، ومضى يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول:

أعمى يقود بصيرا لا أبالكم و قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى صار إلى منزل الرجل ثم قال له: هذا هو منزله يا أعمى، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور!

وكان بشار بن برد مع هذا سمح الخلق، رضي النفس، وقف على بشار بعض المجان وهو ينشد شعرا فقال له أحدهم: استر شعرك هذا

كما تستر عورتك، فصفق بشار بيده وغضب وقال له: من أنت؟ ويلك .. قال: أنا– أعزك الله– رجل من باهلة، وأخوالي سلول، وأصهاري عكل وأسمي كلب، ومولدي بأضاخ، ومنزلي ببني بلال، فضحك بشار ثم قال أذهب ويلك، فأنت عتيق لؤمك، وقد علم الله أنك استترت مني بحصون من حديد.

كما كان بشار يمزح ويحسن الدعابة: قال هلال يوما لبشار وكان صديقا له يمازحه: إن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشيء فما عوضك؟

قال بشار: الطويل العريض .. قال هلال: وما هذا؟ قال عندما أراك وأمثالك من الثقلاء.

وكان بشار يعتز بشخصيته وشعره اعتزازا عظيما، وينعي على هؤلاء الذين يسرقون منه معانيه وأفكاره: ومن ذلك أنه غضب على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته، فاستشفع لديه بجماعة من إخوانه فجاءوه في أمره فقال لهم: كل حاجة لهم مقضية إلا سلما ... قالوا: ما جئناك إلا في سلم، ولا بد من أن ترضى عنه لنا .. فقال: أين هو الخبيث؟ قالوا: ها هو ذا.

فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه ثم قال: يا أبا معاذ أنا خريجك وأديبك، فقال يا سلم من الذي يقول:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

قال: أنت يا أبا معاذ، جعلني الله فداءك .. قال: فمن الذي يقول:

مـن راقـب النـاس مـات غمـا وفـاز باللـذة الجسـور

قال: خريجك يقول هذا- يعني نفسه- قال: فتأخذ معاني التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها، فتكسوها ألفاظا أخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري لا أرضي عنك أبدا، قال: فما زال يتضرع إليه ويشفع له القوم حتى رضي عنه.

ولم يك بشار محبوبا من غالبية الناس وفي ذلك يقول خلف: كنت أسمع بشار قبل أن أراه فذكروه لي يوما، وذكروا بيانه، وسرعة جوابه وجودة شعره، فاستنشدتهم شيئا من شعره فانشدوني شيئا لم يكن بالمحمود عندي فقلت: والله لآتية، ولا طأطئن منه، فأتيه وهو جالس على بابه، فرأيت أعمى قبيح المنظر، عظيم الجثة فقلت: لعن الله من يبالي هذا ووقفت أنا أتأمله طويلا، فبينما أنا كذلك إذ جاءه رجل فقال: إن فلانا سبك عند الأمير محمد بن سليمان ووضع منك فقال: أو قد فعل؟ قال نعم، فأطرق وجلس الرجل عنده وجلست، وجاء قوم فسلوا عليه، فلم يرد عليهم فجعلوا ينظرون إليه وقد انتفخت أوداجه فلم يلبث إلا ساعة حتى أنشدنا أبياتا بأعلى صوته وأفخمه مصورا غيبته عند الأمير منها:

نـاري تحرقـه وبيتـي واسـع للمعتفيـين ومجلـس معمـور

قال: فارتعدت والله فرائضي، وأقشعر جلدي، وعظم في عيني جدا، حتى قلت في نفسي: الحمد لله الذي أبعدني عن شرك.

وقد أردك بشار جريرا والفرزدق وهجا جريرا ألا أنه أعرض عنه استخفافا فتألم من ذلك وقال: لو هاجاني لكنت أشعر الناس.

وصفوة القول أن بشار بن برد كام إمام المحدثين في الشعر، وكانت معانيه مبتكرة خلابة وكان غزله رقيقا ورفيقا عذبا أخاذا مثل:

حـــوراء إن نظـــرت إليـــك ســـــقتك بـــالعينين خمـــرا
وكـــأن رجـــع حـــديثها قطـــع الريـــاض كســـين زهـــرا
وكـــأن تحـــت لســـانها هـــاروت ينفـــث فيـــه ســـحرا
وتخـــال مـــا جمعـــت عليـــه ثيابهـــا ذهبـــا وعطـــرا

كما كان بشار حكيما رزينا برغم خلاعته ومجونه وضرب الأمثلة الصادقة على ذلك فيما نظم من شعر كقوله:

إذا بلـغ الـرأي المشـورة فاسـتعن بـرأي حكـيم أو نصـيحة حـازم
ولا تجعل الشوري عليك غضاضة فـإن الخـوافي قـوة للقـوادم

وقد بلغ ما نظمه من شعر نحو ١٢ ألف قصيدة، ولذلك جاهر بين يدي أهل الأدب بأن له ١٢ ألف بيت جيد فقالوا له: هذا القدر لا يجتمع لكل الشعراء فقال: لي ١٢ ألف قصيدة، ولم يبق من هذه القصائد إلى أيام ابن النديم صاحب كتاب "الفهرست" إلا ٩٠ ألف بيت، ونتف متفرقة في كتب الأغاني وأبن خلكان، والشعر والشعراء لأبن قتيبة.

أما ديوان الشاعر فقد طبع في لجنة التأليف والترجمة والنشر في ثلاثة أجزاء كبيرة.

أما عن مصير الشاعر فقد حدث عام ١٦٨ للهجرة أن أمر الخليفة المهدي وهو بالبصيرة بجلده بالسياط في حراقة بدجلة، فضرب سبعين سوطا حتى مات، ثم دفنه أهله بجانب قبر حماد عجرد، وقيل: إن سبب قتله يرجع إلى تلك الأبيات المشهورة التي هجا بها الخليفة المهدي ووزيره يعقوب بن داود ولا يرجع إلى سبب زندقته:

بنـــي أميـــة هبـــوا طـــال نـــومكم وإن الخليفـــة يعقـــوب بـــن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسموا خليفة الله بين الرزق والعود

إبراهيم بن سيار النظام

هذا فيلسوف من أشهر فلاسفة الإسلام، وأحد فرسان أهل النظر والكلام على حد تعبير الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد".

ولد في القرن الثاني من الهجرة وتوفي في الربع الأول من القرن الثالث للهجرة على وجه التقريب، وكانت له آراء رشيدة، ونظرات سديدة في إعجاز القرآن، وتفسيره، وتحليله وتفصيله كما كانت له آراء في الذات الإلهية، والصفات الربانية والأفعال العلية، والقدرات الإنسانية

ويقال: إن إبراهيم بن سيار النظام عاصر هارون الرشيد وحضر نكبة البرامكة ولكن هذا القول ينقصه الدليل غير أن الثابت أنه ولد في البصرة.

وأنه لقب بالنظام لنظمه الشعر، كما كان يحضر مجلس أبي الهذيل العلاف وكان يصحبه في غدواته وروحاته ويحضر مناقشاته ومناظراته، فتعلم منه فن الاستمالة والإقناع، وقد طاف بكثير من البلاد الشرقية، ونهل من ثقافتها المختلفة ودرس مذاهب متباينة فاشتد إيمانه بالله، وأزداد تمسكا بعقيدته، وكان يرى أن إعجاز القرآن بالصرفة، يعني أن الله صرفهم وأعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله مع قدرتهم على ذلك.

والمعروف أن المتكلمين ذهبوا مذاهب شتى في وجع الإعجاز:

فقال بعضهم:

إن وجه الإعجاز يقع في النظم الغريب المخالف لنظم العرب.

وقال بعضهم: إن وجه الإعجاز من ذروة البلاغة التي اشتمل عليها ولم يأت أحد بمثلها.

وقال بعضهم: إن وجه الإعجاز في النظم حينا، وفي كونه أعلى درجات البلاغة حينا آخر.

وذهب بعضهم ومنهم الشريف المرتضى إلى أن الله صرفهم بأن سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة.

وذهب ابن حزم إلى أن الله منع الناس من معارضته، وكسا الإعجاز القرآن وسبله جميع الخلق وأن قليله وكثيره معجز.

ويرى بعضهم أن وجه الإعجاز في القرآن أنه يخبر عن الغائب كقوله تعالى في سورة الروم: "وهم من بعد غلبهم سيغلبون".

والواقع أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى الصرفة فحسب ولا يرجع إلى إخباره عن الغيوب فحسب، ولا يرجع إلى أسلوبه الرصين وآياته المحكمات إنما يرجع إلى هذا كله فإن ما اشتمل عليه القرآن من نسيج متين، وعبارة منتقاه، ومعنى مبتكر، وأسلوب قصصي جذاب وخلاب، وحكمة بالغة- ليفحم العرب ويقر عنهم بالعجز في المحافل، وكان الكلام سيد عملهم وما جاشت به صدورهم يصلح به حال الناس في دنياهم وآخرتهم. وفاض به بيانهم حتى قالوا في كل ما لاح لعيونهم،

وخطر على قلوبهم وكان فيهم العدد الكبير من العقلاء والنفر الغفير من أهل الحزم والحكماء وهم بعد هذا كله أشد خلق الله أنفة وأفرطهم حمية، ومع كل هذا لم يعارضوه ولا تكلفه أحد منهم ولا أتى ببعضه ولا شبيه به، ولا أدعى أنه قد فعل اللهم إلا من كان أشبه بالمجانين، ومحال أن تكون المعارضة في طاقتهم مع كثرة دهائهم وبلغائهم وبعد الهمة وشدة العداوة ثم لا يعارضوه ولا يجوز أن يكون في طاقتهم المعارضة بالكلام، ثم يتجشموا الحرب، وبذل المهج والأموال والخروج من الديار، لأن الإتيان بخير الكلام أيسر من القتال وإخراج المال.

وتاريخ العرب حافل بكثير من الهراء الذي حاول المرجفون أن يحاكوا به القرآن بيد أنهم باءوا بالفشل والخسران المبين، وجاء كلامهم أشبه بهذيان المحمومين، وتهاويل النائمين فقال مسيلمة الكذاب: الفيل وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل، وقال: "يا ضفدع تنعقين نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين".

وغير خاف أن هذا الكلام أشبه بالأوهام والترهات وأقرب إلى الطيش والحماقات منه إلى الحديث المعقول الذي يخاطب القلوب والعقول جميعا.

وقد أبدى الجاحظ تلميذ إبراهيم بن سيار النظام رأيه في الإعجاز فقال في كتاب "حجج النبوة": "لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها

ونسجها وفي لفظها وطبعها أن عاجز عن مثلها ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين، وأنا لله وعلى توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرق غير مجتمع، ولو أراد الله أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه ما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان وسعد بن عدنان".

وكان ابن سيار يرى عدم البعد في التأويل في تفسير القرآن، وانتقد ما يذهب إليه بعض المفسرين من تفسير المساجد بالجباه، والإبل بالسحاب لا الجمال ولا النوق والويل بواد في جهنم، كما قسموا "سلسبيلا" في قوله تعالى: "عينا فيها تسمى سلسبيلا" إلى كلمتين هما "سل وسبيلا" وكذلك ينتقد تفسيرهم للجلود في قوله تعالى: "وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا" بجعلها كناية عن الفروج، وقوله تعالى: "وثيابك فطهر" بمعنى قلبك فطهر.

وهكذا مضى ابن سيبار النظام ينتقد المفسرين، ومقطع الرأي عنده مهو البعد عن التأويل وترك التكلف والجري وراء الغريب.

أما فيما يتعلق بذات الله فإنه لا يخالف المعتزلة من تنزيه الله التنزيه المطلق وإثباته ذاتا قديمة ونفي الصفات الزائدة عن الذات، وكان يقول: "إن الله لم يزل عالما حيا سميعا بصيرا قديما بنفسه لا بعلم وقدرة، وحياة وسمع وبصر وقدم، والله كامل ويفعل بمقتضى علمه وإرادته هي

فعله فهي المراد، والله لا يفعل إلا ما هو بال فلا معنى للقول بأنه يقدر على القبائح، فالقانون الذي تسير عليه الأفعال الإلهية هو الكمال الواجب لله، فالله لا يفعل ما دون الأصلح، ولا يجوز على الله عز وجل فعل النقيض وأن الله قديم والعالم حادث ومخلوق لله لغرض وهو المنفعة، والله خلق الخلق لعله تكون هي المنفعة والعلة هي الغرض في خلقه لهم وما أراد من منفعتهم، وإذا كان الإنسان عاقلا قادرا، وجب عليه معرفة الله بالنظر والاستدلال، والقرآن الكريم يحض على النظر والاستدلال ويدعو إلى التفكير والتأمل ويحث على التمعن والتبصر فقال تعالى في سورة آل عمران: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب".

وقال في سروة البقرة: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحياء به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون".

وقال في سورة الحج: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها".

وقال في سورة يوسف: "وكأين من أية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون".

ومن أجل ذلك دعا النظام إلى النظر العقلي في الخير والشر،

والقاعدة عنده أن العقل والاختيار والفعل المترتب على ذلك هي التي توجب الثواب والعقاب فإذا عدم العقل أو الفعل أو الاختيار ارتفع التكليف وزال العقاب.

هذه بعض آراء إبراهيم بن سيار النظام التي تثبت أن الإيمان إذا اقترن بالعقل كان أعظم سوخا وأقوى ثباتا وأن الإسلام لا ينكر فضل العقل ولا يجحد أهميته ولا يغمط حقه إنما يستعين بالعقل في نشر تعاليمه ووصاياه وكلما كان العقل رائدا للقلب وهاديا له أستطاع المرء إدراك الأمور وتتكشف أمام بصره الحقائق كلها شاهدة على قدرة الله عز وجل معبرة عن عظمته.

وقد قيض الله لإبراهيم بن سيار النظام تلميذا من تلاميذه الذين نشروا آراءه وتعاليمه وهو الجاحظ الأديب العربي المعروف صاحب المؤلفات والتصانيف الكثيرة، فكان لسان صدق ودعوة حق لأستاذه، ولا تخلو كتاباته من التأثر بمذهب النظام إن لم تكن صورة منه، فيها كثير من التفصيل والتحليل والإسهاب والإطناب.

من القرن الثالث الهجري

أبو حيان التوحيدي

عالم مفكر متصوف عاش في القرن الثالث الهجري بعد أن تولى المتوكل الخلافة عام ٢٣٢ هـ وتمزقت الخلافة إلى دويلات، فاستولى ابن رائق على البصرة وواسط، واستبد البريدي بالأهواز، واستقل بنوبويه بفارس والري والجبل وأصفهان، وانفردت ديلم بطبرستان وجرجان وكرمان.

وقامت الدولة السامانية في خراسان وما وراء النهر، ثم خلفتها الغزنوية بالهند وأفغانستان، وأقام بنو حمدان ملكهم في الوصل وديار بكر وربيعة واستقل الإخشيديون بمصر والشام ثم خلفهم الفاطميون، وصارت اليمامة والبحرين بيد القرامطة ونهض الفاطميون بالمغرب وأفريقية ثم بمصر والشام واستقل عبدالرحمن الناصر بالأندلس ولم يبق للخليفة العباسي إلا بغداد وملحقاتها.

في هذه الفترة عاش أبو حيان التوحيدي ذلك العالم الخبير باللغة والنحو والأدب، والكلام والتصوف والفلسفة والفقه، وربما لم يند له إلا الطب والكيمياء والرياضة.

وقد اتصل أبو حيان بابن العميد كما اتصل بالصاحب بن عباد .. ودارت بينه وبينهما مساجلات ومناقشات أدبية كبيرة.

وقد اختلف الباحثون في سبب تسميته بالتوحيدي، فقيل: إن السبب في هذا اللقب أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد اسمه "التوحيد" وهو الذي يريده أبو الطيب المتنبي في قوله:

يترشفن من دمي رشفات هن فيه أحلى من "التوحيد"

وقيل: إن سبب هذا اللقب يرجع إلى أنه من طائفة المعتزلة، وكان المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل التوحيد.

وذكر السبكي في طبقات الشافعية أنه درس الفقه الشافعي على القاضي أبي حامد المروزي، وسمع الحديث من أبي بكر الشاشي، وأبي سعيد السيرافي وجعفر الخلدي، أما اللغة فقد استمدها مشافهة من البادية.

ومن العلماء الذين التزم صحبتهم ومجالسهم- العالم أبو سعيد السيرافي الذي قرأ عليه شرحه لكتاب سيبويه، ويلقبه أبو حيان التوحيدي في كتاب "الأقناع والمؤانسة" بالإمام كما يقول عنه: أنه شيخ الدهر وفريد العصر، العديم المثل.

ويقول الدكتور زكي مبارك في كتابه عن النثر الفني في القرن الرابع للهجرة: أن التوحيدي كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يتستر اتقاء لسخط الجمهور، وكانت طريقته في تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة كقوله:

الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء والأنبياء يطبون

للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم. وحتى يزول المرض بالعافية فقط، أما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا.

واتهم الكاتب اللغوي الأديب ابن فارس المتوفى في القرن الرابع في كتابه "الفريدة والخريدة" أبا حيان التوحيدي بالزندقة فقال: كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان.

وهذا القول ينقصه الدليل، فأبو حيان التوحيدي كان متصوفا يذوب وجدا وعشقا ويسيل رقة وحبا، وهو القائل "إن كل حي مصيره إلى الفناء إلا الخالق، وقال: اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعورنا، وأرزقنا الألفة التي تصلح القلوب، وتنقي الجيوب حتى نعيش في هذه الدار مصطلحين على خير، مؤثرين للتقوى عاملين بشرائط الدين، آخذين بأطراف المروءة آنفين بملابسة ما يقدح في ذات البين، متزودين للعاقبة التي لابد من الشخوص إليها، ولا محيد عن الاطلاع عليها، أنك تؤتي من تشاء ما تشاء".

هذا وقد أحرق أبو حيان التوحيدي، أكثر كتبه، ويرجح المؤرخون أنه فعل ذلك لأنه فقد الأمل في المجد والغنى والشهرة، كما فقد لذة الحياة عندما نيف على الثمانين، ولعلع كان مريضا معسرا وفقيرا معدما، فأحرق كتبه في غمرة من القمة واليأس والوساوس.

وما أعمق إيمان أبي حيان عندما يقول: حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر في غير عظمة الله، حرام على لسان تعود ذكر الله أن يذكر

غير الله، حرام على نفس طهرت من أذناب الدنيا أن تدنس بشيء من مخالفة الله، حرام على عين نظرت إلى مملكة الله أن تحدق إلى غير الله. حرام على كبدا بتلت بالثقة بالله أن تظمأ إلى غير الله حرام على من لم يرد الخير إلا من الله أن يجدد طمعا في غير الله، حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجي غير الله.

ويظهر أن بعض التيارات الخفية هي التي أوحت إلى بعض الناس باتهامه بالزندقة حتى قال أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه، زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الرواندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء وقال: وأشهرهم على الإسلام هو أبو حيان التوحيدي لأنه مجمخ[١]، ولقد وقف سيدنا الصاحب[٢] كافي الكفاة على بعض ما كان يداخله ويخفيه من سوء الاعتقاد فطلبه ليقتله فهرب واستتر ومات في الاستتار.

وبينما يروي السبكي في الطبقات هذا الكلام يقول ياقوت في معجم الأدباء: كان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام، معتزليا، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ شيخ المتصوفة فيلسوف الأدباء، أديب الفلاسفة، إمام البلغاء، سخيف اللسان، قليل الرضاء عند الإساءة إليه والإحسان، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة".

وقد توفي أبو حيان التوحيدي عام ٣٦٠ هـ وذهب السيوطي إلى أنه

[١] كافر.

[٢] هو الصاحب بن عباد.

توفي عام ٣٨٠ هـ وخلف وراءه مجموعة قيمة من الكتب منها كتاب الأدب والإنشاء في الصداقة والصديق وقد طبع بالمطبعة الشرقية عام ١٣٢٣ هـ وهو عبارة عن رسالتين الأولى عن الصداقة والصديق والأخرى عن العلوم وكتاب المقابسات، وهو مائة مقابسة وثلاث في مباحث العلوم، وهذا الكتاب مفيد جدا، لعل الحريري حذا حذوه كما يرجح ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون.

وقد ذكر المؤلف في هذا الكتاب بعض ما وقع له من مفاوضات علماء عصره في بغداد، وكانوا يجتمعون في دار أبي سليمان المنطقي، فيتذاكرون في موضوعات شتى، وقد نشر في الهند عام ١٣٠٥ هـ والمقتبس عام ١٣٣٠هـ.

وتوجد من المقابسات نسخة فيها ١٠٦ مقابسات تتلوها رسالة الوصايا الذهبية لفيثاغورس وطبع طبع حجر في الهند على يد ميرزا حسن الشيرازي في الخامس من رمضان عام ١٣٠٦ وتتلوها الرسائل الآتية:

١- الإنصاف في أسباب الخلاف لشاه ولي الله الدهلوي.

٢- الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة للشيخ حسن الجبرتي الحنفي

٣- عقد الجيد في أحكام الاجتهادوالتقليد.

٤- كشف الزور والبهتان عن صنعة بني سافان للملا عبد القيوم دنيتي كشمزأنعام ناظر الأوقاف.

٥- إيضاح الدلالات في سماع الآلات للشيخ عبد الغني النابلسي وتتلو

هذه الرسائل الآتية:

٦- القرب في محبة العرب للحافظ عبدالرحيم الفراقي.

وكتب في آخر الكتاب أنه طبع في مدينة بممباي على يد مصححه أمين بن الإمام حسن الحلواني المدني عام ١٣٠٣ هـ.

وفي فهرس دار الكتب المصرية ذكر أربع رسائل غير موجودة في النسخة المذكورة، وهي مقدمة أقوم المسالك لخير الدين باشا التونسي، وبغية المرتاحين في تصحيح الضاد، لعلي بن غانم القدسي المتوفى عام ١٣٠٦ هجرية ثم كتاب السياسة الشرعية لإبراهيم الحلبس، والفلاكة والمفلوكونللدلجي.

كما نشر مرجيليوث المستشرق الإنجليزي عام ١٩٠٥ في لندن مناظرة ابن تونس القتاتي وأبي سعيد السيرافي في رواية أبي حيان التوحيدي.

المتنبي

شاعر عربي مشهور، اسمه أبو الطيب أحمد بن الحسين ويعرف بأبي الطيب المتنبي، ولد في محلة تدعى كندة بالكوفة، ولذلك نسبه بعض المؤرخين إلى قبيلة كندة في بلاد العرب، فقالوا بدئ الشعر بكندة وختم بكندة، يعنون أمرا القيس في البدء والمتنبي والرمادي الشاعر في الختام وكانا متعاصرين، وروى أن أبا فراس الحمداني قال لأبي الطيب في مجلس سيف الدولة "يا داعي كندة".

وكان والد المتنبي يعرف بميدان السقاء، أما والدته فيقال أنها كانت تنتسب إلى قبيلة "همدان" وكانت امرأة صالحة تقية.

وجاء في يتيمة الدهر للثعالبي أن والد المتنبي "سافر إلى الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حاضرها، ومن مدرها إلى وبرها، ويسلمه إلى المكاتب ويردده في القبائل ومخاليهنواطق الحسنى عنه، وضوامن النجح فيه، حتى توفى أبوه، وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع.".

وقد نشأ أبو الطيب محبا للعلم متعلقا به، يحرص على قراءة ذخائر الكتب ودواوين من سبقه من الشعراء، وروى الخطيب عن التنوخي عن أبي الحسن محمد بن يحيي العلوي الزيدي أنه قال: "وأكثر ملازمة الوراقين، فكان علمه من دفاترهم، فأخبرني وراق كان يجلس إليه يوما

قال لي: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط فقلت له: كيف؟ فقال: كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعي "سماه الوراق وأنسبه أبو الحسن" في نحو ثلاثين ورقة ليبيعه. قال: فأخذ ينظر فيه طويلا، فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك فإن كنت تريد حفظه في هذه المدة فبعيد فقال له: إن كنت حفظته فمالي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب قال فأخذت الكتاب من يده، فأقبل يتلوه إلى آخره ثم استلبه فجعله في كمه وقام، فعلق به صاحبه، وطالبه بالثمن، فقال: ما إلى ذلك سبيل وقد وهبته لي: قال: فمنعناه منه، وقلنا له: أنت شرطت على نفسك، هذا للغلام، فتركه عليه".

وهكذا كان أبو الطيب، وقوي الحافظة دؤوبا على القراءة والاطلاع عكوفا على دكاكين الوراقين وقد طاف بمدن الشام، وقضى فترة غير قصيرة في "بادية السماوة" حتى يتلقى اللغة من الأعراب فلا يعجم لسانه ويحيط بأسرارها، ويصل إلى أغوارها وقد أدعى بعض المؤرخين أن المتنبي أدعى في هذه الفترة النبوة.

ويروى من ذلك أن أبا الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم أدعى أنه علوى حسني ثم أدعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشتهر عليه بالشام الكذب في الدعويين، وحبس دهرا طويلا، وأشرف على القتل ثم استتيب، وأشهد عليه بالتوبة وأطلق.

ويروي كذلك أنه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها، إلى أن خرج عليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيديين فقاتله وأسره، وشرد من أجتمع اليد

من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل. وحبسه في السجن حبسا طويلا فاعتل وكاد يتلف حتى سئل في أمره فاستتابة، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه.

وقيل أن أبا الطيب كتب إليه وهو في سجنه يقول:

فمــا لــك تقبــل زور الكــلام وقــدر الشــهادة قــدر الشــهود

وكــن فارقــا بــين دعــوى أردت ودعــوى فعلــت بشــأو بعيــد

وقد جاء ذلك في رواية رواها من يدعى معاذ بن إسماعيل ونقلها صاحب كتاب "الصبح المتنبي عن حياة المتنبي" بيد أن بعض الشراح الثقات يعتقدون أن أبا الطيب قال ذلك الشهر لأنهم كانوا قد وشوا به أنه يريد أن يأخذ البلد.

ويقول الثعالبي في يتيمة الدهر: "وبلغ من كبر نفسه، بعد همته إن دعا إلى بيعته قوما من رائشي نبله على الحداثة من سنه، والغضاضة من عودة وحين كاد يتم له أمر دعوته نقل خبره إلى والي البلدة ورفع إليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده".

ومعنى هذا أن السبب في سجن المتنبي لم يكن ادعاءه النبوة وإنما كان السبب بعد مطامعه، وكبر آماله حتى ظن والي حمص به السوء، وحسب أنه سينزعه من ملكه.

وهكذا كانت الروايات متناقضة في أخبار ادعائه النبوة، غير أن ابن الأثير وغيره ممن رووا أخبار المتنبئين، لم يذكر أحد منهم دعوى أبي الطيب في النبوة.

ويظهر أن مؤرخيه ادعوا نبوته لأنه كان واسع الآمال، كبير المطامع، كما يبدو أن رواية التنبؤ كانت فرية تلصق بكثير من الناس مثلما كانت فرية الزندقة تلصق ببعض الكتاب والشعراء في عهد العباسيين.

ويقول ابن جنى وهو من أكبر شراح ديوان المتنبي: إن الناس لقبوه بالمتنبي عندما قال:

مـــا مقـــامي بـــأرض نخلـــة إلا   كمقـــام "المســـيح" بـــين اليهـــود

أنـــا تـــرب النـــدى ورب القـــوافي   وســـمام العـــدى وغـــيظ الحســـود

أنـــا فـــي أمـــة تـــداركها الله   غريـــب كصـــالح فـــي ثمـــود

ونحن لا نستبعد هذا الرأي، فليس لدينا ما يثبت إثباتا قاطعا أن أبا الطيب أدعى النبوة.

المهم أن أبا الطيب عندما خرج من سجنه هام على وجهه في البلاد واتخذ الشعر وسيلة للاستجداء والوصول إلى العطايا والهبات، فمدح محمد بن زريق الطرسوسي بقصيدة مطلعها:

هـذي بـرزت لنـا فهجـت رسيسـا   ثـم أثنيـت ومـا شـفيت نسيسـا

فوصله عليها بعشرة دراهم، فقيل له أن شعره حسن، فقال:

ما أدري، أحسن هو أم قبيح، ولكن أزيده لقولك عشرة دراهم، فكانت صلته عليها عشرين درهما.

ومدح المتنبي علي بن منصور الحاجب بقصيدة من روائع شعره فأجازه عليها بدينار، ولذلك سميت القصيدة الدينارية ومطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلاببا

وما زال أبو الطيب يمدح هذا مرة وذاك مرة حتى اتصل بأبي العشائر وإلى أنطاكية، وقدمه أبو العشائر إلى سيف الدولة الحمداني عام ٣٣٧ هـ، وأثنى عليه ثناء مستطابا، وعرفه منزلته في الشعر والأدب، ومنذ ذلك الوقت ازداد اتصال أبي الطيب بسيف الدولة، وكانت مجالسه عامرة بالشعراء والأدباء، وكان يسبغ عليهم الرفد والعطاء فأتوا إليه من كل صوب، وتجمعوا حوله من كل حدب، وفي ذلك يقول الثعالبي في اليتيمة: "وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال وموسم الأدباء وخلية الشعراء، ويقال: أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما أجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر".

وقيل أن المتنبي اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه لا ينشده إلا وهو جالس، ولا يكلف تقبيل الأرض بين يديه، فدخل سيف الدولة تحت اشتراطه، وظل المتنبي يسوق روائع شعره إلى سيف الدولة نحو تسع سنين، وسيف الدولة لا يتوانى عن إجازته وإغداق النعم عليه. حتى أنه كان يعطيه كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ما عدا الخيل والجواري والخلع والجوائز والإقطاعات. ولكن هذه النعم لم تدم طويلا، إذ ما لبث الحسد أن نما في قلوب غيره من الشعراء فوشوا به لدى سيف الدولة ودبت القطيعة بين المتنبي وسيف الدولة بعد أن صاغ فيه درر قصائده، وكان أول قصيدة أنشده إياها قوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وآخر قصائده لسيف الدولة مطلعها:

عقبى اليمين على عقبى الوغي ندم   ماذا يزيدك في أقدامك القسم؟

وقد أنشده الأولى عام ٣٧٧ ه والأخرى عام ٣٤٥ ه.

هذا وقد كان سيف الدولة مغرما بشعر أبي الطيب، راغبا في أن يسمع كل حين قصيدة من شعره، فأوغر ذلك صدور غيره من الشعراء، ومما زاد من حسد الشعراء له أنه كان يتعالى عليهم بشعره، ويزهو بقريضه وفي هذا يقول:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي   إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

وسار به من لا يسير مشمرا   وغنى به من لا يغني مغردا

اجزني إذا أنشدت شعرا فإنما   بشعري أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتي فأنني   أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

ويتعرض أبو الطيب في شعره إلى حسد الشعراء له فيقول:

وللحساد عذرا أن يشحوا   على نظر إليه وإن يذربوا

فإني قد وصلت إلى مكان   عليه تحسد الحدق القلوب

وكان المتنبي يرجو أن يقطعه سيف الدولة ولاية يتولى أمرها بيد أن سيف الدولة لم يحقق له رغبته، بل أنه ترك الشعراء يحسدونه ويوقعون فيه، ويضربونه، وهو لا يحرك ساكنا، فعول على فراقه وانحدر إلى دمشق ثم إلى الرملة، واتصل بأميرها الحسن بن طفج فهدده جماعة من العلويين، فغادر الرملة وقدم على كافور الإخشيدي.

وروى بعضهم أن المتنبي رحل إلى العراق بعد خدمته لسيف الدولة بن حمدان في حلب، فأقام في البرية، وسئل عن ذلك فقال: "إن بني حمدان كدروا خاطري، فجئت أريحه".

وقيل: أنه كان بدمشق رجل يهودي من أهل تدمر يعرف بابن ملك يقوم بأمور كافور الإخشيدي والي مصر فسأل المتنبي أن يمدحه فثقل عليه ذلك ولم يفعل، فغضب اليهودي، وجعل "كافور" يكتب في طلب المتنبي، فكتب إليه بذلك فقال المتنبي:

"لا أقصد العبد وإن دخلت مصر، فما قصدي إلا ابن سيده" وذلك لأن كافور الإخشيدي كان عبدا خصيا، وكان من موالي محمد بن طفج الإخشيد، ثم ذهب المتنبي بعد ذلك إلى الرملة فأرسل إليه كافور رسولا يستقدمه، ويظهر أن المتنبي استجاب لدعوة هذا الرسول طمعا في أن يظفر من كافور بولاية. فولى وجهه شطر مصر، واستهل مديحه بقصيدة مطلعها:

كفى بك داء أن ترى الموت   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وفي حمى كافور نال المتنبي مرة ثانية العطايا والهبات، إذ كان كافور محبا للعلماء والأدباء يغدق عليهم في بذل وسخاء، وممن كان في صحبته أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله النجيرمى صاحب الزجاج النحوي، كما كان في صحبته من الشعراء غير أبي الطيب- الشاعر الناشئ- وغيره من الشعراء وكان يرسل كل ليلة عيد حمل بغل دارهم في صرر بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء، فنعم المتنبي

فترة من الزمن بهذه النعم، بيد أن آماله التي كانت تقلقه وتؤرقه حالت بينه وبين الاستمرار في هذه الحياة، فهو يطلب من كافور أن يمنحه احدى الولايات، وكافور لا يحقق له هذه الأمنية، فيسوق له المتنبي قصيدته المعروفة التي مطلعها:

أمولاى هل في الكأس فضل أناله   فإني أغني منذ حين وتشرب

ويفر من وجهه، ولكنه قبل مغادرة مصر يسوق إليه أقذع قصائد الهجاء، ويذكر أبو الطيب أنه دخل مرة على كافور فوجده حافيا، ورأى شقوقا في قدميه فقال:

أريك الرضا لو اخفت النفس خافيا   وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

أمينا وأخلافا وغدرا وخسة   وجبنا أشخصا لحت لي أم مخازيا

وتعجبني رجلاك في النعل أنني   رأيتك ذا نعل وإن كنت حافيا

وقبل رحيله عن مصر بليلة واحدة قال قصيدته المشهورة التي مطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم   فليت دونك بيدا دونها بيد

وفر المتنبي إلى الكوفة ثم رحل إلى بغداد وهناك ترفع عن مدح الوزير المهلبي فأغتاظ المهلبي لذلك وحرض الشعراء الذين تباروا في هجائه والسخرية منه والتهكم عليه، فلم ينازلهم المتنبي، بل اعرض سمعه عنهم، وحدث أن راسله ابن العميد من أرجان في ذلك الوقت،

فولى وجهه شطره، ومدحه بقصائد شتى، ثم اتصل بعضد الدولة بشيراز.

وكان الصاحب بن عباد طمع في زيارة المتنبي أيضا في "أصبهان" واعتباره كمن قصدهم من الولاة والكبراء، فأرسل إليه يستقدمه ويطلب منه أن يمدحه بقصيدتين ووسط رجلا من وجوه التجار فقال أبو الطيب للوسيط: قل لأبي إسحاق والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب على أحد في هذه البلاد من الحق ما أوجبته وأنا إن مدحتك تنكر لك الوزير- يعني المهلبي- وتغير عليك لأنني لم أمدحه، فإن كنت لا تبالي هذه الحال، فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد منك مالا، ولا عن شعري عوضا"!

فحزت هذه الرسالة نفس الصاحب بن عباد مما دفعه إلى التربص به. ثم حرض عليه النقاد، وجعل لا يذكره باسمه في كتابه، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل بالشعر القبيح كقوله في بيت من قصيدة رثى بها أم سيف الدولة:

صلاة الله خالقنا حنوط   على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من طعنوا فيه: هذه استعارة، فقلت صدقت ولكنها استعارة حداد في عرس! ولما أحب تفريط المتوفاة، والإفصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره، واستخرج زبد شعره، فقال:

ولا من في جنازتها تجار   يكون وداعهم خفق النعال

واتصل المتنبي بعد ذلك بعضد الدولة في شيراز فنجحت سفرته، وربحت تجارته في حضرته، ووصل إليه من صلاته أكثر من مائتي ألف

درهم، واستطاب المتنبي الحياة في رحابه والتنعم بين أكفانه، ثم استأذنه بالسفر بقضاء بعض الأمور فأذن له بعد أن نفحه بالمال الكثير، وخلع عليه الخلع العظيمة، وفي أثناء مسيره مع ابنه "محمد" وغلامه، ومعه بغال موقرة بالذهب والفضة، والنفائس، والهدايا انقض عليه قوم من بني ضبة وما زالوا يضربونه ضربا مبرحا حتى مات.

وجاء في "الصبح المتنبي" أن أناسا ذهبوا إلى أبي نصر محمد الجبلي يسألونه عما صدر لأبي الطيب بعد مفارقته عضد الدولة، وكيف كان قتله، فأجابهم جوابا طويلا يقول في إثنائه:

أما ما سألتم عنه من خبر مقتل أبي الطيب المتنبي، فأنا أسوقه لكم وأشرحه شرحا بينا. أعلموا أن مسيره كان من واسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة ثلاثمائة وأربع وخمسين، فقتل بضيعة تقرب من دير العاقول لليلتين بقيتا من شهر رمضان، والذي تولى قتله وقتل ابنه وغلامه رجل من بني أسد يقال له فاتك بن أبي جهل، وكان من قول فاتك لما قتله "قبحا لهذه اللحية يا قذاف المحصنات" وذلك أن فاتكا هذا هو خال ضبة بن يزيد العيني الذي هجاه أبو الطيب فأقذع.

وبقتل المتنبي فقد الشعر العربي علما من أعلامه في القرن الرابع الهجري لا يزال شعره مضرب الأمثال حتى وقتنا هذا.

ولقد اجتمعت في شعر أبي الطيب صفات شتى جعلته شعرا ممتازا في أغلبه: فهو رصين الديباجة، قوي العبارات، مبتدع للمعاني، يدل شعره على نبوغ وعلم باللغة وأسرارها.

وقد حكى الحاتمي أنه ناظر أبا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته في الشعر، بل ناظره في اللغة أيضا، وحكى أن أبا الطيب قال له: اللغة مسلمة لك فقال: وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها، وأعرفهم باشتقاقها، والكلام على أفانينها وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك".

ولما وقع الجدال بين أبي الطيب وابن خالويه في اللغة أمام سيف الدولة الحمداني انتصر أبو الطيب على ابن خالويه مع ما كان يعرف عنه من طول باعه في اللغة.

ومن يقرأ شعر المتنبي يجده صاحب ثقافة لغوية سليمة، ولعل ذلك يرجع إلى الفترة التي قضاها في بادية السماوة، فأخذ أسرار اللغة عن الأعراب دون تزويق أو تنميق.

كما أن من يقرأ ديوان المتنبي يدهشه ما اتصف به المتنبي من حكمة صادقة وفكر ثاقب، ورأى مستنير.

تأمله وهو يقول في فلسفة الحياة:

عـش عزيـزا أو مـت وأنـت كـريم بــين طعــن القنــا وخفــق البنــود

فــرؤوس الرمــاح أذهــب للغــيظ وأشــفى لغــل صــدر الحقــود

ثم تأمله وهو يقول في فلسفة الأمم:

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعــن عنــد محبــيهن كالقبــل

وانظر إلى حكمته في هذه الأبيات:

إذا غــامرت فــي شــرف مــروم فـــلا تقنــع بمـــا دون النجـــوم
فطعــم المــوت فــي أمــر حقيــر كطعــم المــوت فــي أمــر عظــيم
يــرى الجبنــاء أن العجــز عقــل وتلـــك خديعـــة الطبـــع اللئـــيم
وكــل شــجاعة فــي المــرء تفنــى ولا مثــل الشــجاعة فــي الحكــيم

واقرأ تلك الأبيات التي جرت مجرى الأمثال وتناقلها الناس جيلا بعد جيل، وانحدرت من ثغور الشيوخ إلى ثغور الشباب كقوله:

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــارا تعبـــت فـــي مرادهـــا الأجســـام

وقوله:

إن الســلاح جميــع النــاس تحملــه ولـيس كـل ذوات المخلـب السـبع

وقوله:

ولــم أر فــي عيــوب النــاس شــيئا كــنقص القــادرين علــى التمــام

وقوله:

وكـل امـرئ يـولي الجميـل محبـب وكـــل مكـــان ينبـــت العـــز طيـــب

وقوله:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافــة فقــر فالــذي فعــل الفقــر

وأوتي المتنبي موهبة صافية في الوصف سواء أكان الوصف متصلا بوصف الطبيعة والمناظر الخلابة أم بوصف المعارك الحربية ووقائع

الفروسية والقتال.

فقال في وصف شعب بوان الذي مر به أثناء سيره لعضد الدولة في شيراز:

غـدونا نـنفض الأغصـان فيهـا ... علـى أعرافهـا مثـل الجمـان
فسـرت وقـد حجـبن الحـر عنـي ... وجـئن مـن الضـياء بمـا كفـاني
وألقـى الشـرق منهـا فـي ثيـابي ... دنـانير تفـر مـن البنـان
لهـا ثمـر تشـير إليـك منـه ... بأشـربة وقفـن بـلا أوان
وأمـواه تصـل بهـا خصـاها ... صـليل الحلـى فـي أيـدي الغـوانى

ولكن المتنبي في وصف الطبيعة مقل، ولا نكاد نعثر في ديوانه إلا على بضعة أبيات في هذا المضمار فلم تكن تستهويه الأنهار والبحار، والقفاز والرياض قدر ما تستهويه المعارك الحربية والقتال، وقد بلغ المتنبي في وصف الوقائع الذروة، وقد دفعته حروب سيف الدولة، وانتصاراته الباهرة إلى التغني بهذه المفاخرة في شعره، فقال يخاطب سيف الدولة:

تمـر بـك الأبطـال كلمـى هزيمـة ... ووجهـك وضـاح وثغـرك باسـم
تجـاوزت مقـدار الشـجاعة والنهـى ... إلـى قـول قـوم أنـت بالغيـب عـالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة ... تمـوت الخـوافي تحتهـا والقـوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب ... وصـار إلـى اللبـات والنصـر قـادم

ويلاحظ الباحث في ديوان المتنبي كثرة زهوه وفخره فهو يقول:

لا بقـومي شـرفت بـل شـرفوا بـي وبنفســـي فخـــرت لا بجـــدودي

وبهـم فخـر كـل مـن نطـق الضـاد وعـــوذ الجـــاني وغـــوث الطريـــد

وهو يقول في موضع آخر:

أي محـــــــــل ارتقـــــــي أي عظـــــــــيم اتقـــــــــي

وكــــــل مــــــا خلــــق الله ومــــــا لــــــم يخلــــــق

محتقـــــر فـــــي همتـــــي كشـــــعرة فـــــي مفرقـــــي

بل أنه يستصغر شأن الناس ويقل مقدارهم في عينه فيقول:

ودهـــر ناســـه نـــاس صـــغار وإن كانـــت لهـــم جثـــث ضـــخام

ومـا أنـا مـنهم بـالعيش فـيهم ولكـــن معـــدن الـــذهب الرغـــام

ونظم أبو الطيب بعض الشعر في الغزل بيد أنه غزل صناعي لا يدل على حب متغلغل في القلب أو عشق متيم به الفؤاد، واشتهر المتنبي بغزله في الأعرابيات كقوله:

مـن الجـاذر فـي زي الاعاريـب حمـر الحلـى والمطايـا والجلاليـب

ومما نلاحظه على شعر المتنبي أن بعض معانيه خافية لما في شعره من التقديم والتأخير والتهويل، والغرابة في التعبير أحيانا، واستخدام بعض الألفاظ القديمة بيد أن هناك كثيرا من المشابه في معانيه بينه وبين أرسطو طاليس فأرسطو يقول:

""الأشكال" لاحقة بأشكالها كما أن الأضداد مباينة لأضدادها"

فيقول المتنبي:

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام

ويقول أرسطو "على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأشياء، فالسالم العقل يرى الأشياء على قدر حقائقها، والنفس اللئيمة ترى الأشياء بطبعها، ويقول المتنبي:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

ويقول أرسطو: على قدر الهم تكون الهموم.

ويقول المتنبي:

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

ويقول أرسطو: كره ما لابد من كونه- عجز في صحة العقل.

ويقول المتنبي:

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لابد من شربه

ويقول أرسطو: النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان، والنفس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام.

ويقول المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وزعم قوم أنه كان يعرف اليونانية وأنه أخذ كلماته الجوامع من أرسطو طاليس، وزعم آخرون أنه لم يعرف اليونانية وأن ما توافق من

أفكاره مع أرسطو طاليس إنما كان توارد خواطر.

وعندي أنه سواء أصح القول الأول أم الآخر فإن شعره يدل على عبقرية ونبوغ.

قال ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة وهو يتكلم عن كبار الشعراء: "ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس" وقال ضياء الدين ابن الأثير في كتاب "الوشي المرقوم" : "وكنت قد سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة ورأيت الناس منكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره، فسألت جماعة من أدباءها عن سبب ذلك فقلت: إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه، وهو أبو نواس الحسن بن هانئ، فلم يذكروا لي في هذا شيئا، ثم أني فاوضت عبدالرحيم بن علي البيساني "القاضي الفاضل" رحمه الله في هذا فقال لي: أل أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس، ولقد صدق فيما قال".

وقال يقوت الحموي: "وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبي، ويزعم أنه أشعر المحدثين، ويفضله على بشار، ومن أتى بعده مثل أبي نواس وأبي تمام، وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه، فجرى يوما بحضرته ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى، وجعل يتتبع عيوبه، فقال المعري: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله "لك يا منازل في القلوب منازل" لكفاه فضلا، فغضب المرتضى، وأمر فسحب برجله، وأخرج من مجلسه، وقال لمن بحضرته: أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذا البيت من قصيدة له، فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكرها؟ فقيل: النقيب السيد

أعرف، فقال أراد قوله في هذه القصيدة:

وإذا أتتــك مــذمتي مــن نــاقص فهــي الشــهادة لــي بــأني كامــل

وتدلنا هذه الراوية على دلائل كثيرة منها: إن أبا العلاء المعري وهو شاعر حكيم لا يشك في رأيه، ولا يرتاب في حكمه كان من أشد المعجبين بالمتنبي، وهذا مما يرفع قدره، ويعلي شأنه، ومنها أن المرتضى كان يحفظ شعر المتنبي ويعرف أبيات قصيدته بيتا بيتا وهذا يدل من جهة أخرى على ذيوع شعر المتنبي وعلو قدره بين معاصريه.

ويقول أبو الفتح بن جنى: "وإن كان في بعض ألفاظه تعسف عن القصد في صناعة الأعراب، ومن التمسك بأهداب شاذة أو حمل على نادر فعن غير جهل كان منه، ولا قصور عن اختيار الوجه الأعرف له، ومن هنا تشبث قوم لا دراية لهم بعلم العربية بأشياء من ظاهر لفظه إذ لم يكن لهم خبرة بدخيلة أمره. وحقا أقول: لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلا لعالم موفق، وأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها، واستيفاؤه إياها فما لا يدفعه إلا ضد، ولا يستحسن معاندته إلا ند".

وقال ابن شرف القيرواني المتوفي عام ٤٦٠ هـ: "وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن، وسهرت في إشعاره الأعين، وكثر الناسخ لشعره، والآخذ لذكره، والفائض في بحره، والمفتش في قعره عن جماله ودره".

وقال الشريف الرضي: "أما أبو تمام فخطيب منبر، وأما البحتري فواصف جزر وأما أبو الطيب فقائد عسكر".

وصفوة القول أن المتنبي كان عملاقا من عمالقة الشعر في الأدب

العربي، وكان يمثل ثقافة واسعة متعددة الألوان تجمع بين الثقافة القديمة والجديدة، وتمثلت في شعره تيارات مختلفة من المعارف، وكان يصطنع الأسلوب الفلسفي في شعره، والعبارة الصوفية والأفكار بعضها عربي والآخر أجنبي وشاراتها إرضاء للمتصوفة وأصحاب التشيع، كما كان يستخدم الرمزية للدلالة على أفكاره لإرضاء هؤلاء المتصوفة، ويطيل في أفكاره إطالة ملحوظة تدل على براعته وتمكنه من التحكم في صروف البيان.

وقد جمع ديوان المتنبي ونشر أكثر من مرة، ومن شروحه التي بقيت شرح ابن جنى المتوفى عام ٤٩٣ هـ في ثلاثة مجلدات وقد ذكره صاحب كشف الظنون، ومنه نسخة خطية في مكتبة بطرسبرج، وأخرى في مكتبة الاسكوريال، وشرح ديوان المتنبي إبراهيم الأقليلي "المتوفى عام ٤٤١ هـ" ومنه نسخة في مكتبة برلين، وشرحه كذلك أبو العلاء المعري المتوفى عام "٤٤٩ هـ" ومن شرحه نسخة في مكتبة المتحف البريطاني، وأخرى في مكتبة بطرسبرج، وشرحه "....." المتوفى عام "٤٦٨ هـ" وطبع في مومباي بالهند عام ١٣٨١ هـ وفي أوروبا عام ١٨٦١ م، وشرحه التبريزي "المتوفى عام ٥٠٢ هـ" ومنه نسخة في باريس، وشرحه العكبري "المتوفى عام ٦١٦ هـ" وطبع في بولاق بمصر عام "١٨٦٠م".

وهناك نسخ أخرى في مكتبات أوروبا وليس عليها اسم الشارح، ونشر بطرس البستاني ديوانه وعلق حواشيه وتم طبعه عام ١٨٦٠ م، ولليازجي شرح لديوان المتنبي نشر في بيروت أكثر من مرة، كما نشر سليم إبراهيم الديوان ووقف عليه أحد العلماء للتدقيق فعلق حواشيه

وفسر كلماته اللغوية ونشره عام "١٩٠٠ م"، ونشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٤ م "١٣٦٣ هـ" ديوان المتنبي معتمدة على أقدم النسخ وأصحها، وتمتاز هذه الطبعة بزيادات في الشعر ومقدمات للقصائد كتبها المتنبي نفسه، وتعليقات قيمة للشاعر نفسه، وقد صححها وقارن نسخها، وجمع تعليقاتها المرحوم الدكتور عبدالوهاب عزام.

وعنى غرانجريه بترجمة شعره إلى الفرنسية، كما عنى ديترش وهامر، وجونبول بالكتابة عنه ونقد شعره، وعنى جونبول بترجمة بعض شعره إلى اللاتينية عام ١٨٤٠، وألف المستشرق الفرنسي بلاشير كتابا عنه كما كتب مادة "للمتنبي في دائرة المعارف الإسلامية".

ابن مسكويه

مفكر إسلامي جليل

حفل التاريخ الإسلامي بعدد كبير من المفكرين الذين ضربوا بسهم صائب في ميدان المعرفة، ورسموا الطريق إلى السعادة الدنيوية والأخروية، فكانوا بحق من أبرز علماء الأخلاق في العالم أجمع وأصبحت أفكارهم مرجعا لأهل الفكر في الغرب ينهلون من مواردها العذبة، ويعبون من غديرها السلسبيل، ومن هؤلاء المفكرين الإسلاميين– العالم الجليل ابن مسكويه الذي عاش في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس، أما سنة ولادته فمختلف فيها، وسنة وفاته ٤٢١هـ في أكثر المراجع.

وترجع أهمية ابن مسكويه إلى أنه عنى بتدوين التاريخ الإسلامي، وحاول ألا تفوته شاردة أو واردة فيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فكتب "تجارب الأمم" وهو سفر ضخم في ستة أجزاء استهله بتاريخ الخليفة وانتهى فيه إلى عام ٣٦٩ هـ.

ويعد كتاب تجارب الأمم مصدرا أساسيا لتاريخ بني بويه في العصر العباسي إذ تتبع فيه تاريخ البويهيين في دقة وإخلاص– ولم يكتف بالسرد والقصة إنما غاص إلى الأعماق. فانتقدهم في صراحة لا تخلو من شدة، وذكر مواطن المؤاخذة من خوف وتردد، ولم ينس في أثناء

ذلك كله أن يشيد بمواضع الفخر ومواطن الإعجاب، وقد حكم عقله في التاريخ، ومن هنا كان ابن مسكويه يختلف عن ابن جرير الطبري في كتابة أخبار الرسل والملوك إذ كان يكتفي بالرواية دون النقد والتعليل.

بيد أن ابن مسكويه نهج نهج ابن جرير الطبري في ذكر الحوادث على حسب السنين ولم يستطع التخلص من هذه اللازمة في عرضه التاريخي.

وعندما تعرض ابن مسكويه لسيرة النبي عليه السلام والخلفاء الراشدين كان يقف وقفات جليلة تكشف عن مواطن العزة والكرامة، ويعرض صور البطولة في إطار خلاب جذاب، يستهوي النفوس ويستحوذ على القلوب، ولا يتحرج من الاعتراف بأخطاء الحكام في الدولة الأموية مما أدى إلى سقوطها وقيام الدولة العباسية على أنقاضها.

ولم تأت أهمية ابن مسكويه من جهده في تدوين التاريخ الإسلامي فحسب إنما أتت كذلك من كونه عالما أخلاقيا من الطراز الأول، آمن بفكرة الفضيلة إيمانا قويا فدعا إليها وأشربها وحرص عليها في كل ما يكتب ويقول.

م ٤ شخصيات مشهورة

ولقد مكنته عقيدته الدينية التي تدعو في سداها ولحمتها إلى الفضيلة من الصمود في الدعوة إليها والعمل على نشرها بكل طريقة مستطاعه.

والفضيلة في نظره مقترنة باللذة والسرور، فالرجل الفاضل يجد لذة

لا تعدلها لذة، ويساوره سرور لا يساويه سرور عندما يفعل الفضيلة.

مثله في ذلك مثل الفنان الموهوب الذي يعزف على قيثارة فيجد في النغم الحلو، واللحن الطروب لذته الكبرى، أو مثله كالبناء الماهر الذي يجد في الصرح الشامخ، والبنيان السامقعقب الفراغ منه سروره الأكبر وسعادته القصوى، فالرجل الفاضل لا يفعل الفضيلة تحت تأثير لون من الضغط أو ضرب من الإكراه، أو نوع من الحتمية أو الإلزام، إنما يفعلها وهو يشعر بنوع من الحب نحوها.

واللذة متصلة كل الاتصال بالفضيلة، ولا يمكن أن تنفصل عنها بأية حال، وفي هذا يقول ابن مسكويه: "وليست تظهر لذة السعيد إلا بإبراز فضائله، وإظهار حكمته ووضع كفايته في موضعها، وكذلك البناء الحاذق والصانع الماهر، والموسيقي المحسن".

وإذا كان ابن مسكويه يعتبر الفضيلة لونا من اللذة أو هي اللذة بعينها، فإنه لا يغلق الباب أمام هؤلاء الذين يرنون إليها ويطمعون فيها، ويحرصون على الاستئثار بها فيقول إن الفضيلة مكتسبة بمعنى أن الناس يستطيعون أن يكونوا فضلاء، ويستهل القضية من بدايتها فيقول: إن نفس الصبي لا تولد على صورة محدودة أو هيئة معينة إنما هي قابلة للتشكل بحسب ما يحيط بها من الظروف الخارجية وبحسب ما تروض عليه من العادات، فهي في ذلك مثل قطعة الشمع التي تتشكل كيفما يرد صاحبها، أو قطعة الصلصال التي يكيفها المثال كيفما هوى وشاء.

ولذلك لابد من العناية بنفس الصبي وعدم تركها نهبا للجوار الفاسد

أو الوسط الموبوء. فتتسرب إليها الرذيلة عن طريق المخالطة أو المجالسة والمؤانسة.

وهذا المعنى نفسه هو الذي أشار إليه الرسول الكريم في مجاورة الجليس الصالح وجليس السوء. فالأول كحامل المسك والآخر كنافخ الكير إما يحرق ثيابك أو تصيبك منه ريح خبيثة. وليس من شك في أن الأذى الذي يصيب الصبي من نافخ الكير هو الرذيلة في مختلف صورها وشتى مظاهرها وأن المسك الذي يصيب الصبي هو الفضيلة بعينها.

وأول شرط من شروط الفضيلة هو العلم بالشريعة في أول عهد الإنسان منذ طفولته لأن الطفل في هذه الفترة من العمر يكون أكثر استجابة للمعارف والعلوم وقديما قال الحكماء: "التعلم في الصغر كالنقش على الحجر" وفي هذا الباب يقول ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق: "الشريعة هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل، والبلوغ إلى السعادة بالفكر الصحيح والقياس المستقيم".

ويرى ابن مسكويه أن الهدف الأسمى الذي يجب أن يسعر إليه الإنسان الناضج العاقل هو السعادة القصوى إذ أنها الغاية التي لا غاية بعدها، كل فعل يقرب منها فهو خير، وكل فعل يبعد عنها فهو شر.

والسعادة القصوى هي الغرض الأخير والكمال الأقصى على حد تعبيره،.

وهي تؤثر لذاتها لا لغيرها، وهي خير دائم مطلق لا يتعلق بشخص

معين ولا بمكان معين أو زمان معين، إنما هي واحدة في كل زمان ومكان. وهي إلهية وقدسية، بيد أنها في طاقة البشر يستطيعون الوصول إليها والاستمتاع بها، ويمكن الوصول إلى هذه السعادة القصوى عن طريق نبذ اللذات الحسية الخسيسة، ويكون ذلك على سبيل التدرج لا على سبيل الاندفاع والانطلاق والنظر في أمور هذا الكون السفلي والعلوي والحقائق الأزلية فقال تعالى في كتابه العزيز في سورة يونس:

"قل أنظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وقال تعالى جل ثناؤه في سورة البقرة:

إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" كما قال كذلك جل وعلا في سورة آل عمران:

"إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب".

فالسعادة القصوى أن يحقق الإنسان النظر إلى تلك الحقائق العلوية والسفلية ويستخدم عقله في استجلاء كنه هذه الحياة وتحديد موقفه منها، وفي ذلك يقول ابن مسكويه "السعيد التام هو الذي توافر حظه من الحكمة، فهو يقيم بروحانياته بين الملأ الأعلى ويستمد منهم لطائف الحكمة، ويستنير بالنور الإلهي، ويستزيد من فضائله بحسب عنايته بها،

وقلة عوائقه عنها، ولذلك يكون أبدا خاليا من الآلام والحسرات ..

ويكون مسرورا أبدا بذاته مغتبطا بحاله، وبما يحصل له، وإنما من فيض نور الأزل، فليس يسر ألا بتلك الأحوال، ولا يغتبط إلا بتلك المحاسن، ولا يهش إلا لإظهار تلك الحكمة بين أهلها ولا يرتاح إلا لمن ناسبه وقاربه وأحب الاقتباس منه، وهذه المرتبة أن وصل إليها فقد وصل إلى آخر السعادات وأقصاها".

وكان ابن مسكويه ينصح بمقاومة الغضب مقتفيا أثر الرسول الكريم حين قال: "ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب" لأن الغضب يدفع الإنسان إلى ما لا تحمد عقباه، والحلم هو الفضيلة المطلوبة وهي صحة النفس واستقامتها وأمراض النفس ثمانية وهي التهور والجبن والشره والجمود والسفه والبله والجور والمهانة، وهي أطراف مضادة للفضائل الكبرى الأربع وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة.

هذه لمحات من آراء هذا المفكر الإسلامي الجليل ابن مسكويه الذي كانت آراؤه مرجعا لكثير من علماء الأخلاق في أوروبا وطبعت كتبه طبعات مختلفة في الشرق والغرب، فطبع كتاب تجارب الأمم في لندن عام ١٨٦٩ وعام ١٩٠٩ كما طبع في مطبعة "التمدن" بالقاهرة منذ سنوات أما كتابه تهذيب الأخلاق فطبع في الهند عام ١٢٧١ هـ وطبع في مطبعة "التمدن" عام ١٢٩٨ هـ وعام ١٢٩٩ هـ وعام ١٣١٧ هـ كما كتب الشيخ عبد الكريم سليمان مقدمة لهذا الكتاب ونشره باسم

تهذيب الأخلاق لأبن مسكويه في التربية وظهر عام ١٩٠٥ م.

أما كتاب الفوز الأصغر فهو كتاب فلسفي لأبن مسكويه قال فيه الشيخ طاهر الجزائري: "بناه ابن مسكويه على أصول الفلسفة الإلهية وانتصر فيه للدين" وطبع في بيروت عام ١٣١٩ هـ وعام ١٣٢٥ هـ.

هذا وقد تأثر ابن مسكويه في آرائه بكثير من المؤلفين الإسلاميين يذكر منهم أبو حيان التوحيدي في كتابه الإقناع والمؤانسة، والكندي، والفارابي الذي كتب عنه مخطوطا سماه "من كلام أبي نصر الفارابي" وقد جمع فيه كثيرا من الحكم والأقوال.

وكان الأستاذ الإمام محمد عبده يدرس كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لطلبة الأزهر، كما تقرر تدريسه في مطلع القرن العشرين في مدرسة المعلمين الناصرية.

أسامة بن منقذ

أسامة بن منقذ فارس عربي، يمثل الفروسية العربية في أثناء الحروب الصليبية ولد في ٢٧ من جمادي الآخرة سنة ٤٨٨ هـ أي يوليو عام ١٠٩٥ وتوفى في ٢٣ من رمضان ٥٨٤ هـ، نوفمبر ١١٨٨ م، لزم عماد الدين زنكي في حروبه؛ وعمل في البلاط الفاطمي في عهد الخليفتين الحافظ والظافر، واشترك مع نور الدين في حملاته على الفرنج وعاش مع بني أرتق في حصن كيفا في ديار بكر، ثم عاش مع البطل صلاح الدين الأيوبي في دمشق وكان وقت ذاك في التسعين من عمره.

وكان والد أسامة رجلا طقيا يحفظ سورا من القرآن، ويصرف وقته في تلاوته واستنباط مواضع الحكمة فيه.

وحكى أسامة أنه كان مع والده ذات مرة وهو واقف في قاعة داره، وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر الذي في الدار، فوقف يبصرها، فحمل سلما كان في جانب الدار، وأسنده تحت الحية وصعد إليها وكان أبوه يراه فلا ينهاه، فأخرج أسامة سكينا صغيرا من وسطه وطرحه على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهه وبينها دون الذراع، وجعل يجز رأسها، وما زال يحزه حتى قطعه، وألقى الحية داخل الدار وهي ميتة.

كما يحكي أسامة أنه خرج مع والده لقتال أسد على ظهر أحد الجسور فلما وصلا إلى الجسر حمل عليهما أسد من الأجمة التي كان فيها، وشرع يحمل على الخيل، ثم وقف وقد ربض على جرف النهر يتخبط بصدره على الأرض ويهدر، فحمل عليه أسامة فصاح عليه والده، لا تستقبله يا مجنون فيأخذك، ولكن أسامة طعنه، فما تحرك الأسد مكانه، وكانت هذه المرة هي المرة الأخيرة التي نهى فيها والد أسامة ابنه عن القتال.

وهذه الحكايات تدل دلالة قاطعة على أن أسامة نشأ نشأة كلها شجاعة وبسالة وإقدام مما كان له أبعد الأثر في حياته فيما بعد.

وقد تتلمذ أسامة على أبي عبدالله الطليطلى أحد علماء النحو المشهورين في هذا الوقت، فدرس عليه اللغة عشر سنوات كاملة ويقول

أسامة: أنه دخل عليه يوما ليقرأ عليه فوجد بين يديه من كتب النحو كتاب سيبويه، وكتاب الخصائص لأبن جنى وكتاب الإيضاح لأبي الفارسي، وكتاب اللمع وكتاب الجمل فقال له: يا شيخ عبدالله قرأت هذه الكتب كلها؟ قال: قرأتها .. لا والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها، تريد تدري؟

آخذ جزءا وأفتحه وأقرأ الصفحة جمعاء حفظا، حتى آتى على تلك الأجزاء جميعا، فرأى أسامة منه أمرا عظيما ما هو في طاقة البشر.

وعاش أسامة فترة من حياته في مدينة "شيراز" وكان عمه أبو العساكر سلطان حاكما لشيراز فوكل إليه بعض الأعمال التي تتطلب الشجاعة والبسالة. وقد حفظ لنا شمس الدين أبو عبدالله الذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام" المعارك التي حضرها أسامة ومنها المعارك التي اشترك فيها عماد الدين مع الخليفة المسترشد بالله عام ٥٢٧ هـ، وكان عماد الدين في هذه المعارك يناصر السلطان سنجر يحرض عماد الدين على غزو بغداد والاستيلاء على العراق، وكان أسامة في عسكر عماد الدين ووصف لنا وصفا شائقا هذه المعارك التي خاضها في شجاعة وإقدام، وظل أسامة يحارب في صفوف عماد الدين حتى اضطر إلى الرجوع إلى شيراز للدفاع عنها ضد جموع متحالفة من الفرنج والروم واستر القتال بين الفريقين حتى وضعت الحرب أوزارها، وتم الاتفاق بين جيوش ريموند صاحب أنطاكية وجيوش جوسلين الثاني حاكم الرها وغيرهما من ملوك الروم والفرنج– وبين حاكم شيراز على أن ترحل جيوش الحلفاء عن شيراز، وبانتهاء الحرب وعقد الصلح أهدى بنو

منقذ إليهم فيما أهدوه بعض الخيول.

ورحل أسامة بن منقذ بعد ذلك إلى دمشق حيث اتصل بالوزير "معين الدين أنور" ولكن اتصاله بهذا الوزير لم يدم طويلا إذ سرعان ما ظهر لمعين الدين منافس خطير هو مؤيد الدولة أبو الفوارس المسيب بن علي بن الحسين المعروف بابن الصوفي وكان ينازع معين الدين في سلطته ونفوذه، ويدبر المؤامرات للتخلص منه، ففكر معين الدين في استخدام رجل من أهل دمشق بعينه على هذا المنافس ويكون أشد تفانيا في خدمته، فقرب إليه "طحان الباروقي" فأثر هذا العمل في نفس أسامة تأثيرا كبيرا فعول على ترك دمشق، وأزمع الرحيل إلى مصر، وفي رحيله يقول أسامة: "ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر، فضاع من حوائج داري وسلاحي.

مل لم أقدر على حمله وفرطت في أملاكي، ما كان نكبة أخرى. كل ذلك والأمير معين الدين رحمه الله، محسن مجمل؛ كثير التأسف على مفارقتي مقر بالعجز عن أمري، حتى أنه أنفذ إلى كاتبه الحاجب "محمود المسترشدي" رحمه الله قال: "والله لو أن نصف الناس معي لضربت بهم النصف الآخر. ولو أن معي ثلثهم لضربت الثلثين وما فارقتك، ولكن الناس كلهم قد تملئوا علي وما لي بهم طاقة وحيث كنت فالذي بيننا من المودة على احسن حال".

وكتب أسامة إلى معين الدين يقول:

معين الدين كم لك طوق من بجيدي مثل أطواق الحمام

يعبـدني لـك الإحسـان طوعـا وفــي الإحســان رق للكــرام

فصــار إلــى مودتــك انتســابي وإن كنــت العظــامي العصــامي

ولكن يظهر أن معين الدولة وأسامة بن منقذ لم يكونا يظهران ما يبطنان، إذ أن معين الدولة استخدم الياروقيبدلا من أسامة وأرسل أسامة بعد ذلك لمعين الدولة قصيدة كلها عتاب ولوم تستشف منها ضجر معين الدولة من أسامة وسأمه ومله من عشرته.

ووصل أسامة بن منقذ إلى مصر في ٢ من جمادي الآخرة عام ٥٣٩ "نوفمبر عام ١١٤٤" وكان معه والدته وزوجه وأخوه نجم الدولة أبو عبدالله محمد وعدد كبير من مماليكه وحشمه وقد قابله بالترحاب الخليفة الحافظ لدين الله "٥٢٤- ٥٤٤ هـ" "١١٣٠- ١١٤٩" الذي أنزله بدار الأفضل وكانت تسمى دار الملك أو الدار السلطانية، وشغل أسامة في مصر بالصيد وأعجب الخليفة بخبرته فيه حتى قال عنه: "وأي شيء شغل هذا إلا القتال والصيد" وأعطاه الحافظ لدين الله ساعة وصوله بعض الثياب ومائة دينار، أما الدار التي منحه إياها فقد كانت في غاية الحسن، "وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وألتها من النحاس".

وقد شهد أسامة بن منقذ الأحداث الخطيرة التي وقعت بمصر من اضطراب الأمن والصراع بين الوزراء ويقول بعض المؤرخين: إن أسامة هو الذي أشار بقتل ابن السلام الذي خرج على الخليفة الظاهر.

ثم عاد أسامة إلى دمشق مرة أخرى ومنها إلى ديار بكر وقد وصف الحياة الاجتماعية والسياسية في هذه المناطق وصفا شائقا رائعا، واشترك

مع نور الدين في حروبه ضد الصليبيين كما اشترك مع صلاح الدين الأيوبي في بعض غزواته، واستدعاه صلاح الدين من حصن كيفا وأسامة في التسعين من عمره وأسكنه دارا في دمشق، ومنحه صلاح الدين إقطاعا من الأرض فعادت الحياة تدب في أوصال الشيخ ونعم بشيء من الرفاهية والسعادة، وأخذ يلقي المحاضرات في البديع ويدرس في المدرسة الحنفية في دمشق، كما أخذ يدون ذكرياته دون تعمل أو تصنع في مذكراته المعروفة في التاريخ بكتاب الاعتبار وكتب في صدرها هذه الأبيات:

إذا كتبت فخطي جد مضطرب   كخط مرتعش الكفين مرتعد

فأعجب لضعف يد عن حملها قلما   من بعد حطم القنا في لبة الأسد

إذا مشيت وفي كفي العصا ثقلت   رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد

وغرضه من كتابة هذا الكتاب كما بينه هو "أن ركوب أخطار الحروب لا ينقص أجل المكتوب، فأنني رأيت الدهر يوضح للشجاع العاقل والجبان الجاهل أن العمر موقت مقدر، لا يتقدم أجله ولا يتأخر "وإن الله مقدر الأقدار، وموقت الآجال والأعمال" وأنه يجب ألا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر أو يؤخره شدة الحذر".

ويرجع الفضل في اكتشاف هذا الكتاب إلى المستشرق الفرنسي هارنوجدبرو بنورج "١٨٤٤– ١٩٠٨" الذي عثر عليه في إسبانيا بين مخطوطات مكتبة الاسكوريال، وفي عام ١٨٨٦ نشر هذا المستشرق الكتاب في ليدن، وفي عام ١٨٩٤ نشر ترجمة فرنسية له وفي عام

١٩٠٥ نشر المستشرق ثومان هذا الكتاب بالألمانية وترجمه المستشرق سالير عام ١٩٢٢ إلى الروسية، كما قامت جامعة كولومبيا بنشر ترجمته الإنجليزية عام ١٩٢٩ وفي عام ١٩٣٠ نشره فيليب حتى باللغة العربية في الولايات المتحدة وطبع بمطبعة جامعة برنستون.

ولأسامة غير كتاب الاعتبار كتب أخرى منها ديوانه الذي يضم باقة من أشعاره وكتاب المنازل والأديار، وكتاب العصا وقد ذكر فيه أسامة كل ما قيل في العصا منذ عهد موسى عليه السلام، وسليمان بن داود حتى عصره، وكتاب تاريخ القلاع والحصون؛ وأخبار النساء والنوم والأحلام، والشيب والشباب، والتأسي والتسلي وأكثر هذه الكتب مخطوط حتى الآن وفي حاجة إلى أن ينشر ويخرج إلى النور.

ابن الجوزي

هذا أديب مؤرخ عالم مصنف، ولد في بداية القرن السادس للهجرة أو في عام ٥٠٨ هـ على وجه التحديد، ولد في "مشرعة الجوز" من أعمال بغداد ولذلك سمي بابن الجوزي وألف عشرات الكتب في شتى فنون الأدب وعلوم الدين ومن مؤلفاته أسماء الضعفاء والواضعين من رجال الأحاديث في علم الأحاديث وكتاب نزهة الأعين والنواظر في علم الوجوه والنظائر، ولقط المنافع في الضرب والفراسة عند العرب، وكتاب زاد المسير في علم التفسير، وكتاب فضائل القدس، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب الياقوتة في الوعظ والإرشاد، وكتاب مناقب أحمد ابن حنبل، وكتاب سيولة العقل على الهدى في الأخبار، وكتاب الذهب المسبوك في سير الملوك، وكتاب المقيم المقعد في دقائق العربية، وكتاب تلقيح مفهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار، وكتاب المجتبى من المجتنى، وكتاب الأذكياء، وكتاب الخاطر، وله فضلا عن هذا في سيرة الرسول عليه السلام وعمر بن الخطاب، وعمر بن عبدالعزيز وغير ذلك من الكتب والأسفار.

ويعتبر ابن الجوزي من أئمة العلماء في الإسلام وكبار الوعاظ الذين صار الوعظ على أيديهم فنا له قواعده وله أصوله .. واتسمت مجالسه– وارتفعت أقدار رجاله وكان يحضر دروسه عدد غفير من الخلق، بل إن

الخليفة الناصر كان يتحامل على نفسه لحضور هذه الدروس، وكذلك كان يفعل الخليفة المستضيء الذي ألف له ابن الجوزي كتابا أطلق عليه "المصباح المضيء في دولة المستضيء".

والطريف أن ابن الجوزي وصف هذه المجالس التي كان يعقدها بباب بدر في بغداد إذ كانت تغلق أبواب المكان بعد الظهر لشدة الزحام، وإذا جاء بعد العصر فتح له الباب، وزاحم معه من يمكنه أن يزاحم حتى قال أمير المؤمنين عنه: ما هذا الرجل آدمي بما يقدر عليه من الكلام ..

وروى أن الخليفة المستضيء العباسي كان يسمع وعظه ذات مرة، فالتفت إلى ناحية وهو في الوعظ، وقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك؛ وإن قول القائل لك- اتق الله- خير من قوله لكم، أنكم أهل بيت مغفور لكم، وكان عمر بن الخطاب يقول إذا بلغني عن عامل أنه ظلم فلم أغيره فأنا الظالم وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول: قرقر أو لا تقرقر، والله لا ذاق عمر سخينا حتى يخصب الناس، فبكى المستضيء وتصدق بمال كثير وأطلق المحبوسين وكسا خلقا من الفقراء.

وقد كان ابن الجوزي في خواطره التي يرسلها في كتبه يغوص إلى أعماق النفس الإنسانية ويصل إلى خلجات القلوب ونبضات الإحساس ويتعرف على كنة الحقائق والدقائق التي تكمن بين طيات الصدور، ويدرس بواعثها ودوافعها. وقال: إن الإنسان إذا عرضت له جوانب الدنيا

بلذاتها المحرمة إنقاد إليها، ومشى معها ولا يجد في ذلك مشقة أو تعبا وإذا عرضت الآخرة بتكاليفها وقيودها لم يستطع الانقياد إليها إلا بالمشقة البالغة والتعب الشديد، وذلك لأن مثل الطبع في ميله إلى الدنيا كالماء الجاري فإنه يطلب الهبوط وإنما رفعه فوق- يحتاج إلى التكلف.

وقال: إن المؤمن ليس بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ويتجنب المحظورات فحسب، إنما المؤمن هو الكامل الإيمان، ولا يخالج قلبه اعتراض، ولا يساكن فيما يجري وسوسة، وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه، وقوي تسليمه.

وقال سبب صلاح الأخيار هو النظر وأعني به النظر العقلي أو الفكر والتدبير، وسبب إهمال الأشرار هو إهمال النظر، لأن العاقل ينظر فيعلم أنه لابد له من صانع وإن طاعته لازمة، ويتأمل معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم قياده إلى الشرع، ثم ينظر فيما يقربه إليه، ويزلفه لديه.

زد على ذلك أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز وتارة ذل وتارة يفرح الموالي وتارة يحزن الأعالي، فالسعيد من لازم أصلا واحدا على كل حال، وهو تقوى الله عز وجل فأنه إن استغنى زانته، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة عليه، ولا يضره أن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه، لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير والتقوى- أصلا- السلامة وهي حارس لا ينام.

ونبه ابن الجوزي كل ذي لب وفطنة بأن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل، وإن كان حلمه يسع الذنوب فإنه إذا شاء عفا فعفا عن كل كثيف من الذنوب وإن شاء أخذ باليسير فالحذر الحذر .. والله الله في مراقبة الحق عز وجل فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة، وجزاؤه مراصد للمخطئ، ولو بعد حين، وربما ظن أنه العفو وإنما هو إمهال.

واستنكر ابن الجوزي الرياء في العبادة وكان يرى أن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم على حين كان سفيان الثوري يقول: "لا أعتبر بما ظهر من عملي" وكان السلف الصالح يسترون أنفسهم، وكان أيوب السختياني من علماء القرن الثاني للهجرة يطول قميصه حتى يقع على قدميه ويقول: "كانت الشهرة في التطويل واليوم الشهرة في التقصير".

أما ابن الجوزي فيرى أن ترك النظر إلى الخلق ومحو الجاه من القلوب بالتعامل وإخلاص القصد وستر الحال هو الذي رفع من رفع. ويروى أن أحمد بن حنبل كان يمشي حافيا في وقت ويحمل نعليه في يده ويخرج للقاط، أما بشر فكان يمشي حافيا على الدوام وحده وكان معروف يلتقط النوى.

ولا يشير ابن الجوزي في حديثه إلى وجوب اقتفاء أثر هؤلاء العلماء إنما يصور حالهم في معرض الرياء في العبادة وفي مجال آخر يدعو إلى النظافة والعناية بالمظهر ويقول: أن خلقا كثيرا من الناس يهملون أبدانهم، فمنهم من لا ينظف فمه بالخلال بعد الأكل ومنهم من لا ينقي يديه

ويغسلها ومنهم من لا يستاك، ومنهم من لا يكتحل ومنهم من لا يراعي الإبط إلى غير ذلك في حين أمر الدين المؤمن بالتنظف والاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس، ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثوم وأمر الشرع بتنقية البراجم "مفاصل الأصابع" وقص الأظافر والسواك والتطيب وغير ذلك من الآداب.

واستنكر أن يهمل المؤمن أظفاره فيجمع تحتها الوسخ المانع للماء في الوضوء، واستنكف السرار أو الدنو لحديث السر والريح الخبيثة التي تتصاعد من الأفواه، وقال: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أنظف الناس وأطيب الناس، ساقه ربما انكشفت فكأنها جمارة- وهي باطن جزع النخلة- وكان لا يفارقه المسواك، وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة، وقالت الحكماء: من نظف ثوبه قل همه، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: "مالكم تدخلون على قلحا- أي صفر الأسنان- استاكوا".

وقد فضلت الصلاة بالسواك على غير السواك. فالمنتظف ينعم نفسه، ويرفع فيها عقدها، وقالت الحكماء: "من طال ظفره قصرت يده ثم أنه يقرب من قلوب الخلق وتحبه الناس لنظافته وطيبه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الطيب، ثم أنه يؤنس الزوجة بتلك الحال، فإن النساء شقائق الرجال فكما أنه يكره ذلك منها فكذلك هي تكره، وربما صبر هو على ما يكره وهي لا تصبر.

وقد تبين ابن الجوزي فضل العلم على الزهد بشرط أن يكون معه

العمل، وإذا عظم نفسه خفيت عليه أخطاؤه، وإن من العلماء من يفتي بلا علم حفظا للمظاهر ولئلايقال عنه أنه جاهل، وأنه لا يفيد العلم إلا مع ترقيق القلب، فيجب مزج الفقه والحديث بسير الصالحين.

هذه بعض آراء ابن الجوزي في الآداب الإسلامية الرفيعة، وله فضلا عن ذلك آراء في تربية النفس والصبر ومخالفة الهوى، والصبر على المرض والصلات بين الرجل والمرأة والخوف والرجاء والتوكل والتشبيه والتأويل والسعادة والعزلة والطب والصحة والمرض.

وهي آراء قيمة لها أثرها وخطرها في مجالات المعرفة الإنسانية.

من القرن السابع الهجري

القرطبي

تحتفل الأمة العربية بعد شهور بذكرى عالم عربي مشهور وصاحب تفسير كبير وهو أبو عبدالله القرطبي مؤلف كتاب الجامع لأحكام القرآن وهو أشهر كتبه، وعدة مؤلفات أخرى.

وكان عبدالله القرطبي من عباد الله الصالحين وشيوخه الورعين المتنسكين الذين يخافون الله ويتبعون كتابه، ويزهدون في الدنيا وينصرفون عن لذائذها ودنياتها ويعكفون على عبادة الله والتقرب إليه وعاش عبدالله القرطبي في القرن السابع الهجري في الأندلس وقضى أغلب حياته في مدينة قرطبة وهي أحدى المدن العربية الشهيرة بمساجدها ومعالمها الإسلامية الخالدة.

وسمع أبو عبدالله القرطبي من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض شرحه لكتاب "المفهم، لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"

وحدث عن الحافظ أبي على الحسن بن محمد بن علي بن حفص اليحصبى وغيرهما.

ويمثل أبو عبدالله القرطبي هذه الطائفة من علماء التفسير في الغرب الذين لا تقل جهودهم في خدمة الإسلام، وتفسير القرآن، وعلم

الحديث والفقه عن علماء المشرق ويصور حقبة خالدة من تاريخ العرب في هذه البلاد.

وقد جمع القرطبي في تفسير القرآن كتابا كبيرا في أثنى عشر مجلدا أطلق عليه "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وأي الفرقان" وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، وقد أسقط المؤلف من كتابه القصص والتواريخ وكثيرا من الإسرائيليات التي حفل التفسير عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وأمثالهم، وأثبت عوضا عن ذلك أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والأعراب والناسخ والمنسوخ.

وتفسير القرطبي يختلف عن تفسير الكاشف في حقائق التنزيل الذي كتبه الزمخشري من أهل خوارزم العراق وجنح فيه إلى مناقشة آراء المعتزلة موضحا الفساد ومواضع الخطأ فيها. كما تعرض إلى الناحية البلاغية في القرآن الكريم ووضح مواضع الجمال في التشبيهات والاستعارات والكنايات التي زخر بها الكتاب العزيز.

وقد قام شرف الدين الطيبي من أهل تبريز من عراق العجم في ذلك الوقت بشرح كتاب الزمخشري هذا وتتبع آية، وبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة. وقد دار النقاش في الكتاب وشرحه حول الموضوعات البلاغية التي أثارها أسلوب القرآن الكريم على العكس من تفسير القرطبي الذي لم تثر فيه مثل هذه المسائل الصفحات الطوال ووجهات النظر المتعددة.

أما منهجه في هذا التفسير فهو إضافة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفيها إذ أنه من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله على حد تعبيره وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه إلا من أطلع على الحديث فيبقى من لا خبرة له حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم. ولا يقبل الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضاف إلى من أخرجه من الأئمة الأعلام والسقاة المشاهير من علماء الإسلام.

وكان رائد القرطبي في هذا العلم الجليل الذي أقدم عليه قوله تعالى في كتابه العزيز "ما فرطنا في الكتاب من شيء" كما استشهد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "إن لله أهلين من الناس" قالوا يا رسول الله من هم؟ قال: هم أهل القرآن وخاصته فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه ويتذكر ما شرح له فيه ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحيه.

وروى القرطبي في هذا الكتاب بعض ما جاء في الآثار وأول ذلك ما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين قال: وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه.

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب الرد على من ألف مصحف عثمان بن عبدالله

بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله النور المبين، والشفاء النافع عصمة من تمسك به، ونجاة من اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه، والله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، وإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، وأن أفقر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله".

بهذه الروح الورعة النقية، وهذه النفسية السليمة المؤمنة مضى أبو عبدالله القرطبي في تفسيره، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان" وذكر طرفا في تفسيره من اللغات والأعراب والقراءات والرد على أهل الزيغ والضلالات وأحاديث كثيرة شاهدة لما ذكر من الأحكام ونزول الآيات، ذكرا ما يبين معانيها مبينا ما أشكل فيها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف.

وتضمن كتابه كذلك أبوابا في فضائل القرآن والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به وكيفية التلاوة لكتاب الله وما يكره فيها وما يحرم واختلاف الناس في ذلك وتحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره، وما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه وما جاء في إعراب القرآن وتوضيحه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربا وما جاء به في فضل تفسير القرآن وأهله، وما جاء في حامل القرآن وما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعاليم القرآن وحرمته، وما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي والجرأة في ذلك ومراتب المفسرين وكيفية التعليم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء أنه سهل

على من يقدم العمل دون حفظه، ووقف طويلا عند قول الرسول الكريم: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما تيسر منه" وتعرض لجمع القرآن وسبب كتابة عثمان المصاحف وإحراق ما سواها.

وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وذكر معنى السورة والآية والحرف وهل ورد في القرآن وغير ذلك من المباحث الإسلامية التي تهم الدارسين والباحثين في القرآن وتفسيره، ولعلها كانت من المراجع التي رجع إليها جلال الدين السيوطي في كتابه المعروف "الإتقان في علوم القرآن" كما رجع إليها غيره من العلماء.

وقد مضى القرطبي في تفسيره للكتاب العزيز بعد ذلك حتى جاء تفسيره في أثنى عشر مجلدا، وما لبث أن توفى في منية ابن خصيب في الأندلس حيث دفن بها في ليلة الأثنين التاسع من شوال عام ٦٧١ هـ.

وللقرطبي كتاب آخر يسمى "الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى" وكتاب "التذكرة بأمور الآخرة"، وكتاب شرح التقصي، وكتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة:، وفي ذلك يقول ابن فرجون في كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، "مذهب مالك": لم أمض على تأليف أحسن منه في بابه.

وللقرطبي أرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وله تواليف وتعاليق مفيدة غير ذلك.

وله كتاب التذكار في أفضل الأذكار وقد خرج أحاديثه وعلق

حواشيه العلامة المحدث السيد أحمد بن محمد بن الصديق الغمارى ونشره محمد أمين الخانجى عام ١٣٥٥ هـ في طبعة جديدة.

وقد تضمن هذا الكتاب مباحث شتى تتصل بالكتاب الكريم فيها إن القرآن الكريم كلام الله عز وجل وهو غير مخلوق وفضائل القرآن وتفسير قوله تعالى "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا" إلى آخر الآية الكريمة وإن أفضل الخلق إيمانا من عمل بما فيه، وتضمن الكتاب كذلك مباحث في المدة التي يستحب فيها ختم القرآن وفي أن القلوب تصدأ وان جلاءها تلاوة القرآن وأن العلم والقرآن ميراث الأنبياء عليهم السلام، وضم الكتاب كذلك مباحث في دفع البلاء بتعلم القرآن وأخذ الأجرة على تعليم القرآن وحسن الصوت وترك الترجيع والتطريب ونحو ذلك والبكاء والخشوع عند تلاوته والخشية عند سماعه وما إلى ذلك.

وصفوة القول أن كتاب القرطبي الأخير يعد غذاء روحيا نافعا لكل المؤمنين المتعطشين إلى الارتواء من منهل القرآن العذب السائغ، ورحيقه الحلو المذاق، ومع أن الكتاب كتب بطريقة روحية خالصة، فإنه لا يخلو من منهج علمي سليم، وحقائق دينية راسخة، وقد وضعه مؤلفه على طريقة التبيان للنووي.

هذا وقد كان العلامة القرطبي برغم هذه المجهودات الدينية الكبرى رجلا متواضعا طيب المعشر حلو المجلس، حسن الطوية، ويروي صاحب نفح الطيب المقري "أنه كان يمشي بثوب واحد وعلى رأسه "طاقية""، مما يدل على زهده وتقشفه وورعه ونسكه.

ولعل خير ما نختم به هذه الترجمة الموجزة عن أبي عبدالله القرطبي قول الرسول الكريم عليه السلام: "إذا مات الإنسان أنقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

وقد ترك القرطبي علما صالحا لا يزال الناس ينتفعون به حتى اليوم. ولا يزالون يتذاكرونه برغم مرور الحقب وتباعد الأزمان.

من القرن السابع الهجري

الأخطل

الأخطل هو غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة من بني تغلب، ويكنى أبا مالك وهو شاعر أموي مشهور، واختلف في سبب تلقيبه بالأخطل فقيل: أنه هجا رجلا من قومه فقال له: يا غلام، أنك لأخطل، أي سفيه. والمعروف أنه سمي بالأخطل لبذاءته وسلاطة لسانه على حين يقول ابن قتيبة: "الأخطل من الخطل وهو استرخاء الأذن. ونقله صاحب خزانة الأدب وعلق الشارح على ذلك بقوله: لا أعلم أحدا ذكر أن الأخطل كان طويل الأذنين مسترخيهما، ولم يكن الشاعر نفسه متبرما بلقبه إنما كان يسمي نفسه به أمام الخلفاء دون غضاضة.

ولد في بادية العراق على شاطئ الفرات ثم تنقل في شتى الأمصار وقد تزوج الأخطل بيد أنه لم يلبث أن طلق زوجته لأنه لم يرتح إلى الإقامة معها، وتزوج أخرى كانت مطلقة كذلك، وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني أن هذه الزوجة الأخيرة تذكرت زوجها الأول أمام الأخطل فتنهدت متأسفة وكان بالأخطل مثل ما بها فقال:

كلانا على هم يبيت كأنما ... بجنبيه من مس الفراش قروح

على زوجها الماضي تنوح وأنني ... على زوجتي الأخرى كذاك أنوح

وعاش الأخطل في زمن واحد هو وجرير والفرزدق وهم من طبقة

واحدة في الشعر وكان الأخطل يقيم في الحيرة فدارت مهاجاة بينه وبين كعب بن جعيل شاعر تغلب، فغلبه الأخطل وأحمه فصار هو المقدم بين شعرائها ...

وكان الأخطل ينقي شعره فينظم تسعين بيتا، ويختار منها ثلاثين، وسئل حماد الراوية عن الأخطل فقال: وما تسألوني عن رجل حبب شعره إلى النصرانية. وتقرب الأخطل إلى معاوية بما كان ينظمه من قصائد الهجاء، ولما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان أكره الأخطل، وكان بصيرا بالشعر حتى سماه شاعر بني أمية.

وكان الأخطل نصرانيا يتعصب لدينه تعصبا ملحوظا، وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني ما نقله عن أبي عبدالملك قال: "رأيته بالجزيرة وقد شكا إلى القس وأخذ بلحيته وضربه بعصاه وهو يصئ كما يصئ الفرخ فقلت له: أين هذا مما كنت فيه بالكوفة؟ فقال: "يا ابن أخي، إذا جاء الدين ذللنا"

م ٥ —شخصيات مشهورة

وسمع هشام بن عبدالملك الأخطل وهو يقول:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

فقال له هشام: هنيئا لك يا أبا مالك هذا هو الإسلام ... فقال له الأخطل: يا أمير المؤمنين ما زلت مسلما في ديني.

وكان أكثر الأنصار لا يرون رأي معاوية في الخلافة فأغرى يزيد بن معاوية الأخطل بهجائهم فهجاهم هجاء مرا، فشكوه إلى معاوية، فطالبهم

بالبينة بيد أنهم لم يتمكنوا من إظهارها، ولذلك احتمى الأخطل بيزيد ثم بخلفاء بني مروان، وصار شاعر دولتهم بقية حياته، وأصابه الشؤم في مناصرة الفرزدق على جرير فنصب له جرير وكاد جرير يصبح مطية الأخطل في يوم من الأيام إذ روى صاحب الأغاني أن الأخطل مدح عبدالملك وكان واجدا على جرير، وجرير عنده فصاح عبدالملك: أجدت أنت مادحنا .. وأنت شاعرنا .. أركب .. قال جرير .. فرمى بردائه، وكشف قميصه عن منكبيه ووضع يده على عنقي فقلت: يا أمير المؤمنين، النصراني الكافر لا يظهر على المسلم ويركبه، فقال أهل المجلس: صدق يا أمير المؤمنين، فقال: دعه، وانفض المجلس.

وكان الأخطل يعاقر بنت الدنان، ويشرب منها حتى الثمالة.

وروى أبو الفرج الأصفهاني في الجزء الحادي عشر من كتاب الأغاني أن المتوكل الليثي الشاعر جاء يوما وهو في الكوفة مع رفيق له إلى الأخطل فقالا له: أنشدنا يا أبا مالك فقال: "أني لخائر[٣] يومي هذا" فقال المتوكل وانشدنا أيها الرجل فو الله لا تنشدني قصيدة إلا أنشدتك مثلها أو أشعر منها من شعري قال: ومن أنت؟ قال "أنا المتوكل" قال: أنشدني .. ويحك من شعرك. فأنشده المتوكل أبياتا حسنة السبك ولكنها باردة جافة، فقال له الأخطل ما معناه: لو شربت لكنت أشعر الناس.

ومن أوصافه للخمر قوله في قصيدة لامية مدح بها الشاعر خالد

---

[٣]خائر: منقبض غير نشيط

ابن عبدالله الأموي.

فصبوا عقارا في إناء كأنها إذا لمحوها جذوة تتأكل
تدب دبيبا في العظام كأنه دبيب نمال في نقا يتهيل

وأجلد الأخطل الشعر في المدح إجادة اشتهر بها في تاريخ الأدب العربي ومن أروع آثاره الشعرية في هذا المضمار قصيدة "خف القطين" التي استهلها بالغزل ثم تخلص إلى الممدوح عبدالملك بن مروان فمدحه، وقومه، وذكر خدمات الأخطل خاصة وبني تغلب عامة في سبيل الأمويين منتهيا بهجاء أعداء أمية من قيس وحلفائهم ولا سيما كليب بن يربوع قوم جرير خصم الأخطل والفرزدق ومطلع القصيدة:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير
كأنني شارب يوم استبد بهم من قرقف ضمنتها حمص أو جدر

ومن أجود مدحه في هذه القصيدة قوله:

حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا أمت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجت على الآفاق مظلمة يكن لهم مخرج منها ومعتصر
أعطاهم الله جدا ينصرون به لا جد إلا صغير بعد محتقر
لم يأشروا فيه إذ كانوا موليه ولو يكون لقوم غيرهم أشروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذ قدروا

وقال في هجاء كليب بن يربوع قوم جرير وهم بنو تميم:

أما كليب بن يربوع فليس لهم عند التفارط إيراد ولا صدر

مخلفـون ويقضــي النــاس أمـرهم وهـم بغيـب وفـي عميـاء مـا شـعروا

قـوم أنابــت إلــيهم كــل مخزنــة وكــل فاحشــة ســبت بهــا مضــر

وأبدع الأخطل في الوصف إيما أبداع فوصف الفلاة المقفرة، ووصف الحيوانات الضارية كالأراقم والذئاب والحمر والبقر الوحشي كما وصف الحيوانات المستأنسة والدجاج والكلاب والإبل، ووصف الطبيعة الخلابة، ونهر الفرات، وما يعبره من سفن، ووصف الموج المتدفق، والزبد المتطاير، وما إلى ذلك.

ويعد الأخطل على رأس الشعراء الذين وصفوا السفن والملاحة في الأدب العربي إذ كانت سواحل البحرين من منازل قومه القديمة "فملئوا ظهر البحر سفينا" على حد تعبير عمرو بن كلثوم، ثم انتقلوا إلى ضفة الفرات فرأى السفن تمخر عباب البحر، وافتن في وصفها، ما شاء له الافتنان وقد اعتقد بعض شراح ديوانه أن الأخطل عندما بذكر السفن في قصائده لا يقصد السفن التي تمخر عباب البحر إنما يقصد سفينة الصحراء أو سفن البر كما يقول ذو الرمة: "سفينة بر تحت خدي زمامها" كما جعل الشارح الجمال ملاحا.

بيد أن الواقع يختلف عن ذلك اختلافا كبيرا، فالأخطل ينتمي إلى قبيلة عرفت البحر وركبت متنه، فليس بغريب إذن أن يلجأ الأخطل نفسه إلى هذا الوصف ومن قصائده التي تعرض فيها لوصف السفن هذه القصيدة.

يفــارقن الخلــيط علــى ســفين يشـــق بهـــن أمواجـــا صـــعابا

أما ديوان الأخطل فقد عنى بطبعه الأب أنطون صالحاني عن نسخة

في دار الكتب في بطرسبرج استنسخها رزق الله حسون من أدباء القرن التاسع عشر المشهورين وطبعها في بيروت عام ١٨٩١، وعنى الأب صالحاني بطبع الديوان طبعة محررة عن نسخة وجدت في بغداد، وصدرت طبعة في بيروت عام ١٩٠٩، وهناك طبعة للديوان على الحجر باعتناء الدكتور "عريفين" عن نسخة وجدت في اليمن وظهرت في بيروت عام ١٩٠٧، وعليها تعليقات وشروح، وقد سمع الأب صالحاني بنسخة من ديوان الأخطل في طهران ترجع إلى عام ٤٩٩ هـ "١١٠٥ م" فتكون أقدم النسخ المعروفة ومازال يعمل ويفاوض حتى حصل عليها. ونشر فيها ما زاد على منشورات النسخ السابقة في كتاب صدر عام ١٩٣٨ بعنوان "التكملة لشعر الأخطل".

أما قصيدة "خف القطين" فقد نشرت مع ترجمة لاتينية وطبعت في ليدن عام ١٨٧٨ ونشر المستشرق الكبير كوزان دي برسفال بحثا نشره في المجلة الأسيوية عام ١٨٣٤ بعنوان ملاحظات على الشعراء الثلاثة الأخطل، والفرزدق، وجرير، كما نشر الأب لامانس عام ١٨٩١ في باريس كتابا بعنوان "شاعر الأمويين". كما كتب فصلا عنه في دائرة المعارف الإسلامية.

وخصص الأب لويس شيخو فصلا عنه في كتاب "شعراء النصرانية بعد الإسلام".

وشعر الأخطل متناثر في كتاب الأغاني للأصفهاني والشعر والشعراء لابن قتيبة،والعقد الفريد لابن عبدربه وغير ذلك من المصادر.

الحسن البصري

حينما عرف الغزالي التصوف في إحياء علوم الدين قال: إن التصوف أمر باطن لا يستطلع عليه، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته، بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العلم في إطلاق اسم الصوفي، ويفضل أن يلاحظ في الصوفي خمس صفات: الصلاح والفقر وزي الصوفية، وألا يكون مشتغلا بحرفة، وأن يكون مخالطا لهم بطريق المساكنة، وقد وافق كثير من علماء المتصوفة الغزالي على تعريفه، بل لقد اشترط بعضهم اشتراطات أخرى شديدة على المتصوفة لا مجال لذكرها الآن.

ولكن المهم أن هناك فئة من الزهاد والعباد سبقوا حركة التصوف ونهجوا في حياتهم نهجا أشبه بنهج المتصوفة، ومهد زهدهم وعبادتهم لخروج التصوف إلى معناه المعروف في تاريخ الأديان، ومن هؤلاء الزهاد والعباد الحسن البصري، المسلم الزاهد.

وقد كان الحسن البصري أو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن، حليف الخوف والحزن، وأليف الهم والشجن وعديم النوم والوسن، ونموذجا حيا للفقيه الزاهد، في متاع الدنيا وزينتها وزخرف حياتها وبهجتها وشهوة النفس ورغبتها.

ولقد تشكل الزهد في الإسلام بطابعين طابع الخوف وطابع الحب.

ومثال الأول الحسن البصري الذي نتحدث عنه اليوم.

ومثال الآخر رابعة العدوية التي أخرجته من الخوف من عذاب النار

والشوق إلى ثواب الجنة إلى حب الله وطاعته والأنس به والإقبال عليه، والشوق إليه فقالت في أحدى مناجاتها: "ألهي، إذا كنت أعبدك رهبة من النار، فأحرقني بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فاحرمني إياها، أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني يا ألهي جمالك الأزلي".

أما الحسن البصري فكان من طابع الزهد الأول وقوامه الخوف من العذاب، والأمل في الثواب، وليس أدل على إمعانه في الخوف، وخشيته ورهبته من أن الشعراني صاحب الطبقات الكبرى قال عنه: "أنه قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له" وساقه هذا الخوف إلى حزن عميق يكتنفه اكتناف ويطويه طيا من كثرة التفكير والتأهل والتقدير فقال: "إن المؤمن يصبح حزينا، ويمسي حزينا، ولا يسعه إلا ذلك، لأنه بين مخافتين: بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيبه من المهالك؟".

كما قال: "الرجاء والخوف مطية المؤمن" وقال كذلك" "إن المؤمن يصبح حزينا ويمسي حزينا ويتقلب باليقين في الحزن، ويكفيه الكف من الثمر والشربة من الماء".

وهكذا كان الحسن البصري تظلله دائما سحابة من الحزن، وغيمة من الشجن ويدفعه وازع من الخوف، وأمل من الرجاء، غير أنه كان يضمر للحياة القلا والكراهية، ويعلن لها المقت والنفور، وينصح الناس بالتجرد منها، والزهد فيها والانصراف عن ملاذها وشهواتها التي تجعل من الناس بهيمة تسعى وتدب على الأرض، فقال: "يا ابن آدم، أنت اليوم

في دار هي لاقتك .. ثم تقضي بأهلها إلى أشد المور وأعظمها خطرا، فاتق الله يا ابن آدم، وليكن سعيك في دنياك لأخرتك، فأنه ليس لك من دنياك شيء إلا ما صدرت أمامك ولا تدخرن عن نفسك مالك، ولا تتبع ما قد علمت أنك تاركه خلفك".

وكان الحسن البصري يتوق إلى الجنة، ويهفو قلبه إلى نعيمها العظيم وخيرها السابغ وفضلها العميم وكانت عيناه تدمعان حينما يتلو القرآن الكريم ويتذكر قوله تعالى في سورة التوبة: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" أو قوله تعالى في سورة الأعراف: "ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون" أو غير ذلك من الآيات البينات التي تشوق المؤمنين في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

غير أن الحسن البصري كان يرى أن الجنة لا يمكن أن تهدى إلى الناس إهداء أو تسدى إليهم إسداء، إنما لابد من سعي في سبيلها، ولابد من جهاد من أجلها، ولابد من سلوك طريق يؤدي إليها، وهذا الطريق قوامه العمل الخالص. وفي هذا يصرح الحسن البصري لأبن آدم قائلا: "يا أبن آدم عملك .. عملك فإنما هو لحمك ودمك فأنظر إلى أية حال تلقي عملك لأن لأهل التقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وصلة الرحم، وحسن الخلق، وسعة الخلق، مما يقربك إلى الله عز وجل".

وكان الحسن البصري يرى أن كل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء

دون الناس يسير، وكان ينظر إلى الموت نظرة حصيفة: رأى رجلا يأكل بين المقابر فزجره، وأنبه وقال: "أما في حال هؤلاء الأموات ما يكفيك عن تذكر الأكل؟" ومر عليه شاب وعليه بردة فدعاه فقال: "أيه يا أبن آدم، معجب بشبابه، معجب بجماله، معجب بثيابه، كأن القبر قد وارى بدنك، وكأن قد لاقيت عملك، فدوا قلبك، فإن حاجة الله إلى عباده صلاح قلوبهم".

وقد دفع الزهد الحسن البصري إلى الانصراف عن مظاهر الحياة المادية، وما يتبعها من مال وعروض، وضياع ونقود، وجاه ونفوذ، فقال: "بئس الرفيقان الدرهم والدينار .. لا يرافقانك حتى يفارقاك".

وقد بنى أحدهم بماله دارا فخمة ضخمة، دعا الحسن إلى دخولها فدخل فنظرها ثم قال: "أخربت دارك وعمرت دار غيرك. لا غرك من في الأرض، ومقتك من في السماء. طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك، أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك!"

وهكذا أسس الحسن البصري مذهبه القائم على الزهد الخاضع لسلطان الحزن، والبكاء والخوف من النار، والحنين إلى الجنة، والشوق إلى نعيمها المقيم، ووصفها بالجميل الذي ما لا رأته عين، ولا سمعته أذن، ولا مر على لسان.

وقد ظل الحسن ينشر مذهبه بين أتباعه ومريديه حتى شاعت طريقته، كما شاع أسلوب رابعة العدوية في زهدها، وأخذ اتباع هذين المذهبين من الزهد ينتشرون هنا وهناك، وفي أرجاء البلاد الإسلامية،

طوال القرنين الأول والق=ثاني الهجريين حتى اجتمع شملهم، والتأم شتاتهم في هيئة منظمة أو شبه منظمة تعرف بالصوفية، ولم تلبث أن ظهرت طرائق متعددة للمتصوفة وأساليب مختلفة ولكنها جمعت بين صفوفهم.

وهنا يحق لنا أن نقول أن الحسن البصري لم يكن متصوفا بالمعنى المعروف إنما كان زاهدا عابدا والزهد غير الفقر والتصوف، ويقول السهروردي في كتابه "عوارف المعارف": أن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد، ولكن بزيادة أوصاف وإضافات بدونها لا يكون الصوفي صوفيا، ولو كان زاهدا فقيرا فالتصوف أعلى من الفقر والوهد، وإن كان منطويا عليهما ومستندا إليهما، لأنهما يمهدان إلى النغمات الروحية، والإشراقات الإلهية، والتصوف علم لبواطن القلوب".

وقد تعددت أقوال الصوفية وتباينت تعريفاتهم في مفهوم معنى التصوف وتفرقوا في ذلك شيعا وأحزابا في القرون المختلفة.

لم يكن الحسن البصري أذن متصوفا إنما مهد لظهور التصوف بما سلكه من سلوك الزاهد المتبتل وبما تفوه به من حكم كالدر المنثور والزهر المنضود، حتى قال الجنيد المتصوف في تعريف التصوف: "هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به وتكون مع الله بلا علاقة" كما قال آخر: "هو استرسال النفس مع الله على ما يريد" وقال سهل: "الصوفي من صفا من الكدر، وأمتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله دون البشر واستوى عنده المال والمدر" وقال السهروردي: "الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفي الأوقات عن شوائب الأقدار بتصفية القلب

عن شوب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقي من الكدر، وكلما تحركت النفس، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها بصيرته النافذة، وفد منها إلى ربه، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه قال الله تعالى: "كونوا قوامين لله شهداء بالقسط".

ومن يتأمل في هذه الأقوال يلاحظ أنها لا تختلف كثيرا عن أقوال الحسن البصري في الحياة والزهد، وتطهير النفس، وإيثار الفقر إلى الله عز وجل، بيد أن الحسن كان يطوي هذا كله بغلالة من الخوف والرهبة والأسى والحزن وهكذا، كما كان يميزه زهده وتعبده.

وقال الغزالي: " كان الحسن أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء، وأقربهم هديا من الصحابة، اتفق العلماء في حقه على ذلك". وقال ابن عربي: "الحسن عندنا من أئمة أهل الطريق إلى الله جل جلاله، ومن أهل الأسرار والإشارات" وقال الحافظ: "كان يستثنى من كل غاية، فيقال فلان أزهد الناس إلا الحسن، وأفقه الناس إلا الحسن، وأفصحهم إلا الحسن".

ونظر أيه راهبان فقال أحدهما لصاحبه: "مل بنا إلى هذا الذي سمته سمة المسيح فعدلا إليه، فألفياه مفترشا لذقنه راكعا وهو يقول: "يا عجبا لقوم أروا بالزاد، وأذنوا للرحيل ما الذي ينتظرون؟".

ومن أحسن كتب الحسن البصري كتاب أدب الدنيا والدين الذي يعتبر ذخرا نفسيا في الأدب الإسلامي الكريم والخلق الإنساني الفاضل.

أبو فراس الحمداني

أبو فراس الحمداني هو الحارث بن أبي العلاء السعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة الحمداني، شاعر أمير عاش في القرن الرابع الهجري وقال عنه الثعالبي في يتيمة الدهر: " كان فرد دهره وشمس عصره أدبا وفضلا وكرما، ونبلا، ومجدا وبلاغة، وبراعة وفروسية، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبدالله بن المعتز، وأبو فراس يعد أشهر منه عند أهل الصنعة، ونقده الكلام، وكان الصاحب بن عباد يقول: "بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يعني امرأ القيس وأبا فراس.

وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز، ويتجافى جانبه، فلا ينبري لمباراته، ولا يجترئ على مجاراته، وإنما يمدحه ويمدح من دونه آل حمدان تهيبا له وإجلالا، لا إغفالا ولا إخلالا.

وكان سيف الدولة يعجب جدا بحماسة أبي فراس، ويصطحبه في غزواته، ويستخلفه على أعماله، وأبو فراس ينثر الدر الثمين في مكاتباته إياه، ويوفيه من سؤدده، ويجمع بين أدبي السيف والقلم في خدمته.

وقد أسره الروم في بعض الوقائع وأقام بالأسر أربع سنوات وله في الأسر أشعار كثيرة من أجود ما قاله.

حكى ابن خالوية: قال كتب أبو فراس إلى سيف الدولة وقد شخص من حضرته إلى منزله "بمنبج" كتابا صدره بقوله: "كتابي– أطال الله بقاء مولانا– "من المنزل". وقد وردته ورود السالم الغانم مثقل البطن والظهر وفرا وشكرا". فاستحسن سبق الدولة بلاغته، ووصف براعته، وبلغ أبا فراس ذلك فكتب إليه:

هـــل للفصـــاحة والســـماحة   والعـــــلا عنـــــي محيـــــد

فـــي كـــل يـــوم أســـتفيد   مـــــن العـــــلاء وأســـــتزيد

ويزيـــــد فـــــي إذا رأيتـــــك   فـــي النـــدى خلـــق جديـــد

وكان سيف الدولة، قلما ينشط لمجلس من مجالس الأنس في هذه الآونة لاشتغاله عن ذلك بتدبير الجيوش، وملابسة الخطوب، وممارسة الحروب، وصادف أن وفدت أحدى المغنيات من قيان بغداد، فتاقت نفس أبي فراس إلى سماعها/ ولم يرد أن يبدأ باستدعائها قبل سيف الدولة، فكتب إليه يحثه على استحضارها فقال:

محلـــك الجـــوزاء أو أرفـــع   وصـــدرك الـــدهناء أو أوســـع

وقلبـك الرحـب الـذي لـم يـزل   للجـــد والهـــزل بـــه موضـــع

رفــه بقــرع العــود ســمعا غــدا   قــرع العــوالي جــل مــا يســمع

فبلغت هذه الأبيات سيف الدولة الحمداني فأمر القيان بحفظها وتلحينها حتى تنشد في حضرته.

وتأخر أبو فراس عن حضرة سيف الدولة لعله وجدها فكتب إليه

يقول:

لقـــد نافســـني الـــدهر   بتـــأخيري عـــن الحضـــرة
فمـــا ألقـــى مـــن العلـــة   مـــا ألقـــى إلـــى الحســـرة

وأهدى الناس إلى سيف الدولة وأكثروا فكتب أبو فراس:

نفســـي فـــداؤك قـــد بعثـــت   تعهـــدي بيـــد الرســـول
أهـــديت نفســـي إنمـــا   يهـــدي الجليـــل إلـــى الجليـــل

وقال يشكره على صفحه عنه، وتسامحه حياله، مشيدا بمعروفه وفضله، وتقصير أبي فراس عن الثناء عليه.

ومـالي لا أثنـي عليـك طالمـا   وفيـت بعهـدي والوفـاء قليـل
وأوعـدتني حتـى إذا مـا ملكتنـي   صـفحت وصـفح المـالكين جميـل

وكتب يستعطفه:

إن لـم تجـاف عـن الـذنوب   وجـــدتها فينـــا كثيـــرة
لكـــن عادتـــك الجميلـــة   أن تغـــض علـــى بصـــيرة

وكتب يعزيه:

لا بـد مـن فقـد ومـن فاقـد   هيهـات مـا فـي النـاس مـن خالـد

ونظم أبو فراس الحمداني جملة من القصائد في وصف الحروب والطعان التي اشترك فيها سيف الدولة. ومن قصيدة يذكر فيها إيقاعه ببني كعب وتعد من عيون شعره:

ألـم ترنـا أعـز النـاس جـارا ... وأمـنهم وأمـرعهم جنابـا

لنـا الجبـل المطـل علـى نـزار ... حللنـا المجـد منـه والهضـابا

يفضـلنا الأنـام ولا نحاشـي ... ونوصـف بالجميـل ولا تحـابي

وقـد علمـت ربيعـة بـل نـزار ... بأنـا الـرأس والنـاس الـذنابي

ولمـا أن طغـت سـفهاء كعـب ... فتحنـا بيننـا للحـرب بابـا

منحناهـا الحرائـب غيـر أنـا ... إذا جـارت منحناهـا الحرابـا

ولمـا ثـار سـيف الـدين ثرنـا ... كمـا هيجـت أسـادا غضـابا

أسـنته إذا لاقـى طعانـا ... صـوارمه إذا لاقـى ضـرابا

دعانـا والأسـنة مشـرعات ... فكنـا عنـد دعوتـه الجوابـا

صـنائع فـاق صـانعها ففاقـت ... وغـرس طـاب غارسـه فطابـا

وكنـا كالسـهام إذا أصـابت ... مراميهـا فراميهـا أصـابا

وقد كان أبو فراس الحمداني يستهل أغلب قصائده بالغزل والنسيب على النحو الذي كان يلجأ إليه الشعراء المتقدمون. ثم يعرج بعد ذلك إلى الغرض الذي نظم من أجله القصيدة كالمدح أو الفجر أو الوصف أو نحو ذلك ومن ذلك قوله في أحدى قصائده:

أيلحـانى علـى العبـرات لاحـي ... وقـد يـئس العـواذل مـن صـلاحي

تملكنـي الهـوى بعـد التـآبي ... وراضـني الهـوى بعـد الجمـاح

ومن الأبيات التي توضح فخره واعتزازه بشخصيته قوله إلى أبي أحمد جعفر بن ورقاء:

أنـــــا إذا أشــــتد الزمـــــان ونـــــاب وخطـــــب وأدلهـــــم

ألفيـــــت حـــــول بيوتنـــــا عـــــدد الشـــــجاعة والكـــــرم

للقــا العــدا بــيض السـيوف وللنـــــدى حمـــــر الـــــنعم

هـــــذا وهـــــذا دأبنـــــا يـــــودي دم ويـــــراق دم

ومن فخره قوله كذلك:

أقلـــي فأيـــام المحـــب قلائـــل وفـي قلبـه شـغل عـن اللـوم شـاغل

تطـالبني البـيض الصـوارم والقنـا بمـا وعـدت جـدي وفـي المخايـل

تـــدافعني الأيـــام عمـــا أورمـــه كمـا دفـع الـدين الغـريم المماطـل

خليلـي شـدا لـي علـى ناقتيكمـا إذا مـا بـدا شـبب مـن الفجـر ناصـل

فمثلـي مـن نـال المعـالي بسـيفه ويـــا ربمـــا غالتـــه عنهـــا الغوائـــل

ومـا كـل طـلاب مـن النـاس بـالغ ولا كـل سـيار إلـى المجـد واصـل

ومـا المـرء إلا حيـث يجعـل نفسـه وأنـي لهـا فـوق السـماكين جاعـل

أصـاغرنا فـي المكرمـات أكـابر وآخرنـــا فـــي المـــأثرات أوائـــل

إذا صــلت صــولا لــم أجــد لــي وإن قلـت قـولا لـم أجـد مـن يقـاول

وهكذا ظهرت في شعر أبي فراس الحمداني روح العزة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالشخصية ولا يرجع ذلك إلى أنه كان أمير، بل لأنه أوتي نفسا تواقة إلى المعالي متعلقة بعظائم الأمور. ومن قصائده التي توضح هذه النفسية المتوثبة قوله:

غيـــري يعيـــره الفعـــال الجـــافي ويحـول عـن شـيم الكـريم الـوافي
لا أرتضــي ودا إذا هــو لــم يــدم عنـــد الجفـــاء وقلـــة الإنصـــاف
تعس الحـريص وقـل مـا يـأتي بـه عوضـــا عـــن الالحاحوالالحـــاف
أن الغنـــي هـــو الغنـــي بنفســـه ولـو أنـه عـاري المناكـب حـافي
مـا كـل مـا فـوق البسـيطة كافيـا فـإذا قنعـت فكـل شـيء كـافي
وتعـاف لـي طمـع الحـريص فتـوتي ومروءتـــي وقنـــاعتي وعفـــافي
مـا كثـرة الخيـل العتـاق بزائـدي سـرفا ولا عـدد السـوام الضـافي
خيلـــي وإن قلـــت كثيـــر نفعهـــا بـــين الصـــوارم والقنـــا الرعـــاف
ومكـارمي عـدد النجـوم ومنزلـي مـأوى الكـرام ومنـزل الأضـياف
شـيم عرفـت بهـن منـذ أنـا "...." ولقــد عرفــت بمثلهــا أســلافي

وقد قرب سيف الدولة أبا فراس الحمداني إليه، وأقطعه على أثر مساجلة شعرية ضيعة منبج "تغل ألف دينار كل سنة" على حد تعبير ابن خلكان في وفيات الأعيان. وتفصيل ذلك أن أبا فراس كان بين يديه يوما في نفر ندمائه، فقال لهم سيف الدولة أيكم يجيز قولي؟ وليس له إلا سيدي يعني أبا فراس:

لـــــك جســـــمي تعلـــــه فـــــدمي لـــــم تحلـــــه

فأرتجل أبو فراس وقال:

أنـــا إن كنـــت مالكـــا فلـــك الأمـــر كلـــه

فاستحسنه سيف الدولة الحمداني بجانب شهرته في حروبه صاحب

همة عالية في إحياء العلم والأدب، إذ جمع بساطة أعاظم الأدباء وأكابر الشعراء الذين كان من بينهم أبو فراس والمتنبي الذي اتصل بقصره تسعة أعوام كاملة والسري الرفاء الشاعر الوصاف، وأبو الفرج الببغاء، وابن نباته السعدي وفيلسوف الإسلام أبو نصر الفارابي وابن خالويه عالم اللغة والأدب الذي كانت تفد إليه وفود الطلاب من كل فج عميق.

ويقول الثعالبي في يتيمة الدهر: "لما أدركت أبا فراس حرفة الأدب وأصابته عين الكمال، أسرته الروم في يعض وقائعها، وهو جريح وقد أصابه سهم بقى نصله في فخذه، وتطاولت مدة أسره لتعذر المفاداة، وكانت تصدر أشعاره في الأسر والمرض، لفرط الحنين إلى أهله وإخوانه وأحبابه، والتبرم بحاله ومكانه، عن صدر حرج، وقلب شجي، فتزداد رقة ولطافة، وتبكي سامعها، وتعلق بالحفظ من سلاستها".

ومن هذه الأشعار التي نظمها أبو فراس في أسره وتعرف في الأدب العربي باسم "الروميات" قوله:

مـــا للعبيــــد مــــن الـــــذي يقضـــــي بــــــه الله امتنــــــاع
ذدت الأســـود عـــن الفـــرائس ثــــــم تفرســـــني الضــــــباع!

وكتب أيضا إلى سيف الدولة من الطريق، وقد حملته الروم، واشتدت به العلة وازداد عليه الوجع والألم:

هـــل تعطفـــان علـــى العليـــل لا بالأســـــــير ولا القتيـــــــل
باتـــــت تقلبـــــه الأكـــــف ســــــحابة الليــــــل الطويـــــل

فقـــد الضـــيوف مكانـــه وبكـــاه أبنـــاء الســـبيل
وتعطلـــت ســـمر الرمـــاح وأغمـــدت بـــيض النصـــول
يـــا فـــارج الكـــرب العظـــيم وكاشـــف الخطـــب الجليـــل
كـــن يـــا قـــوي لـــذا الضـــعيف وايـــا عزيـــز لـــذا الـــذليل
قربـــه مـــن ســـيف الهـــدى فـــي ظـــل دولتـــه الظليـــل
لـــم أرو منـــه ولا شـــفيت لطـــول خدمتـــه غليلـــي
يـــا عـــدتي فـــي النائبـــات وظلتـــي عنـــد المقيـــل
أيـــن المحبـــة والـــذمام ومـــا وعـــدت مـــن الجميـــل؟

وكتب إلى أمه يصف آلامه في الأسر ويوصيها بالصبر والسلوان:

لـــولا العجـــوز بمنـــبج مـــا خفـــت أســـباب المنيـــة
ولكـــان لـــي عمـــا ســـألت مـــن الفـــدا نفـــس أبيـــه
لكـــــن أردت مرادهـــــا ولـــو انجـــذبت إلـــى الدنيـــة
أم بمنـــــبج حـــــرة بـــالحزن مـــن بعـــدي حريـــة
يـــــا أمنـــــا لا تيئســـــي لله ألطـــــــاف خفيـــــــة
يـــــا أمنـــــا لا تحزنـــــي وثقـــــي بفضـــــل الله فيـــــه
كـــم حـــادث عنـــا جـــلاه وكـــم كفانـــا مـــن بليـــة
أوصـــيك بالصـــبر الجميـــل فإنـــه خيـــر الوصـــية

ويشاء الله أن تموت أمه وتلفظ أنفاسها وهو ما برح في الأسر يكتوي بناره فأنكب يبكيها بدمع هتون:

أيـــا أمـــاه بشـــرى بقربـــي ... أتتـــك ودونـــي الأجـــل القصـــير
إلـى مـن أشـتكي ولمـن أنـاجي ... إذا ضـاقت بمـا فيهـا الصـدور

وكان أبو فراس كريم الخلق نبيل الشعور حتى أنه تذكر خادمه "منصور" وهو في أسره ونظم له بضعة أبيات جاء فيها:

وكثيـــر مـــن الرجـــال حديـــد ... وكثيـــر مـــن القلـــوب صـــخور
أنـا أصـبحت لا أطيـق حراكـا ... كيـف أصـبحت أنـت يـا منصـور

ومن أروع شعره الذي نظمه قبل الوفاة تلك الأبيات:

أبنيتـــــــي لا تجزعـــــــي ... كـــل الأنـــام إلـــى ذهـــاب
نـــوحي علـــي بحســـرة ... مـــن خلـــف ســـترك والحجـــاب
قـــــولي إذا كلمتنـــــي ... وعييـــت عـــن رد الجـــواب
زيـــن الشـــباب أبـــو فـــراس ... لـــم يمتـــع بالشـــباب

وفي ربيع الآخر عام ٣٥٧ هـ قتل أبو فراس: وسبب ذلك أنه كان مقيما بحمص فجرى بينه وبين أبي المعالي بن سيف الدولة وحشة، فطلبه أبو المعالي فأنحاز أبو فراس إلى حدود "بقرب حمص" فجمع أبو المعالي الأعراب من بني كلاب وسيرهم في طلبه مع قرعوية فأدركه، وأخيرا قال قرعوية لغلام أقتله فقتله، وأخذ رأسه وتركت جثته في البرية حتى دفنها الأعراب.

وهكذا قتله مولى ابن أخت أبي المعالي عندما تبين له طمعه في السلطان.

هذا وقد طبع ديوان أبي فراس الحمداني عدة طبعات منها طبعة ظهرت في بيروت عام ١٨٧٣ عن المطبعة السليمية دون شروح، وطبعة ظهرت عام ١٩٠٠ مع شروح قليلة بقلم نخلة قلفاظ، وطبعت مختارات الثعالبي في يتيمة الدهر في دمشق في أوائل القرن الحالي وطبعت في ليدن عام ١٨٩٥ ومعها ترجمة بالألمانية للمستشرق الكبير رودلف دفوراك، ونشرت المطبعة الأدبية في بيروت ديوان الشاعر عام ١٨٧٣، ولم يشر الثعالبي في اليتيمة إلى قصيدة أبي فراس في رثاء والدته بيد أنها في نسختين مختلفتين في برلين، وفي نسخة محفوظة بأكسفورد، وترجم أحد المستشرقين قصيدة أخرى من قصائده في والدته إلى الألمانية.

من القرن الحادي عشر الهجري

الشاعر الرمادي

هو شاعر عربي عاش في أكناف الأندلس منذ ما يقرب من ألف عام، واهتز للجمال وعشق قلبه أحدى ربات الجمال فأرسل نغمات حلوة أسكرت الآفاق ترددت أصداؤها سحرية النبرات، وكتب روائع خالدة وبدائع لامعة في جبين الأدب.

ولكن يد الدهر شاءت أن تسلبها فحملت مخطوط شعره أيدي المستشرقين إلى برلين بين أطواء النفائس العربية حين اندلعت نيران الحرب الأخيرة وأخذت تغرق برلين بالقذائف والحمم، فنقلت ذخائر مكتبة برلين إلى غارمين.

أنه أبو عمرو يوسف بن هرون الرمادي الذي كتب عنه صاحب مطمح الأنفس ومسرح التأنس في كتابه المطبوع بالقسطنطينية عام ١٣٠٢ أنه "شاعر مفلق انفرج له من الصناعة المغلق وومض له برقها المؤتلق وسال بها طبعه كالماء المتدفق فأجمع على تفضله المختلف والمتفق"

وقالت عنه دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الإنجليزية: أنه ربما سمي الرمادي لأنه من مدينة بالقرب من قرطبة أو ربما سمي بذلك نسبة إلى الرماد، والعرب كانت تكني بكثرة الرماد عن الكرم.

وقد قضى الرمادي حياته في مدينة قرطبة اللهم إلا بضعة شهور قضاها في مدينة سراقوجة وقد ذكر صاحب نفع الطيب في كتابه أن قرطبة كانت من الأندلس بمثابة الرأس من الجسد.

وقالت دائرة المعارف البريطانية في النسخة الإنجليزية كذلك: إن الشاعر الرمادي قد أثرت في حياته عوامل عدة: منها اتصاله بأبي علي القالي مؤلف الآمالى والخطيب "أبو الحسن" واتصاله بعد هذا وذاك بصاحبته خولة التي كانت على حظ وافر من الجمال وقسط ساحر من السحر الحلال .... وسميت خولة في بعض المصادر بحلوة بالضم أو حلوة بالكسر.

اسمعه يقول:

على كبدي تهمي السحاب وتذرف   وعن جزعي تبكي الحمام وتهتف

كأن السحاب الداكنات غواسل   وتلك على فقدي نوائح هتف

ألا ظعنت ليلي وبأن قطينها   ولكنني باق فلوموا وعنفوا

وآنست في وجه الصباح لبينها   نحولا كأن الصبح مثلي مدنف

وقال أيضا يبكي حاله ويندب حبه:

فقدت دموعي يوسفا في حسنه   فغدوت يعقوبا بشدة وجده

وعميت مما قد لقيت من البكا   حتى سجنت على الجفون ببرده

ولقد كان هذا الشاعر إلى جانب هذا رائع التأملات دقيق النظرات في الطبيعة تخلبه مجاليها وتسلب لبه مفاتنها وكأني به وقد وقف أمام

البحر الخضم يلقي بصره على الموج الشاحب الباهت الذي يطغى عليه الزبد بين الفينة والفينة فيذكر حبيبه الهاجر ويقول:

ورأيـــت فـــوق البحـــر درعـــا   فاقعـــــا مـــــن زعفـــــران
يـــأمن نـــأي عنـــي كمـــا   ينـــأي لعينـــي الفرقـــدان
فـــأرى بعينـــي الفرقـــدين   وأنـــــه مـــــا أن يرانـــــي
هـــل ثـــم إلا المـــوت فـــردا   لا تكـــــون الميتتـــــان

ثم يزجي الشاعر الرمادي حسراته وأناته إلى مالكة فيقول:

قولـوا لمـن أخـذ الفـؤاد مسـلما   يمـــنن علـــى بـــرده مصـــدوعا
العبـد قـد يعصـي وأحلـف أننـي   مـــا كنـــت إلا ســـامعا ومطيعـــا
مـولاي يحيـا فـي حيـاة كاسـمه   وأنـــا أمـــوت صـــبابة وولوعـــا[٤]
لا تنكروا غيـث الـدموع فكـل مـا   ينحـل مـن جسـمي يكـون دموعـا

وكان الشاعر الرمادي إلى جانب هذا يضيف إلى الخيال العربي آفاقا جديدة ومعاني رقيقة لم يألفها العرب من قبل. اسمعه يقول:

قبلــــه قــــدام قسيســــة   شــــربت كاســــات بتقديســــه
يقـــرع قلبـــي عنـــد ذكـــري لـــه   فـــي فـــرط شـــوقي قـــرع ناقوســـه

بل اسمعه يقول كما يقول لإمارتين الشاعر الفرنسي الرومانسي الرائع "أنني أغني يا أصدقائي كما يتنفس الإنسان ويغرد الطائر وتتنسم

[٤] أي حياة حلوة كاسمها إذ أحيانا كانت تدعى بالاسم (حلوة)

الريح ويهدر الماء".

أيهـا الائمـى علـى الحـب مهـلا   هـل تـلام الحمـام فـي التغريـد؟

أننا إذا ما ذكرنا في تاريخ الأدب العربي بعض الشعراء العذريين العشاق كجميل بثينة، وقيس- ليلى، وعروة- عفراء وغيرهم فأننا أيضا نذكر الرمادي الذي تيم بحب خولة وأنشد فيها قصائد رائعة وقلائد لامعة في صدر الأدب العربي وإن سقطت من جيد الأدب تناثر بعضها في بطون اللغة العربية التي في مصر كنفح الطيب وذخيرة ابن بسام ومطمح الأنفس وياقوت الحموي ودائرة المعارف الإسلامية، وانتقل البعض الآخر إلى برلين حيث احتبس في غار قصى ..

كان الشاعر الرمادي يحب خولة كما كلن ابن زيدون يحب ولادة، وكان سجينا لأسباب سياسية كما كان ابن زيدون كذلك.

وجملة القول أنهما كانا شاعرين رائعين من طراز واحد وأفق واسع، وخيال سبوح ولكن شعر يوسف بن هرون حملته أيدي المستشرقين إلى برلين وأقصته القذائف والحمم إلى غار قصى مكين فليت شعري من يحرر الشعر السجين؟

من القرن العشرين الميلادي

المنفلوطي

قلما تذهب إلى مدرسة من المدارس أو معهد من المعاهد إلا وتشاهد فتاة أو فتى عاكفا على أحد كتب المنفلوطي يقرؤه مرة ومرة حتى يكاد يلتهمه التهاما ويستعير أحد الطلاب أحد كتب المنفلوطي من كتب معهده حتى إذا ما خلا إلى نفسه أخذ يقرؤه ويستوعبه ويستلهم معاني الحب النبيل من كلماته وصور الفضيلة الفذة من صوره.

وتلك هي منزلة المنفلوطي في صدور الشباب كما كانت منزلته في الجيل الماضي. بلى إن منزلته في الجيل الماضي كانت تعدل منزلته اليوم عشرات المرات. وكان مجرد ذكر اسم المنفلوطي معناه عملاق الأدب العربي ورسول البلاغة ومبدع البيان.

نشأ المنفلوطي في بيت عرف بالورع والتقى والدين والعلم، ولما تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وفد إلى الأزهر كما كان يفد طلاب العلم إليه. وكما وفد إليه سعد زغلول والزيات وطه حسين وغيرهم من أقطاب الأدب العربي الحديث.

وقد تفتحت مواهب المنفلوطي وهو لايزال في ريعان العمر على نظم الشعر فنظم قصيدة غزلية وهو في السادسة عشرة من عمره يشكو حرق الغرام وآلام الجوى والسهاد.

وقد كان المنفلوطي يذكر هذه القصيدة لأصحابه في خفية واحتراس ولكن سرها عرف عند أساتذته، فطلبوا إليه إنشادها، فأنشدها لهم وهو يتبلل من الخجل وطلب منه أحد أساتذته المتمكنين من اللغة والأدب أن ينطلق في ميدان الشعر والأدب، فلابد للزهرة أن تتفتح عن كمها ولابد للعطر أن يفوح منها فيعبق الأجواء.

واتصل المنفلوطي بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وظل يحضر مجالسه حتى استوفى أنفاسه عام ١٩٠٥ وقد أفسح الشيخ محمد عبده من مجلسه للمنفلوطي وشجعه على الكتابة في الصحف والاتصال بالرأي العام.

ولم يلبث أن بزغ نجم المنفلوطي على صفحات المؤيد وهي تلك الجريدة التي كان يصدرها الشيخ على يوسف ومضى يكتب أسبوعياتهويسجل فيها كل ما يعن له من خواطر وما يضرب في قلبه من أحاسيس وقد جمع بعد ذلك هذه الأسبوعيات في كتاب أطلق عليه "النظرات".

وقد قام المنفلوطي بتعليم الشباب الحب العفيف بما دبجته براعته من قصص نقلها عن الأدب الأوروبي مثل قصة "ماجدولين" التي ألفها الكاتب الفرنسي "ألفونس كار" "والفضيلة" "وفي سبيل التاج" للكاتب الفرنسي "فرانسوا كوبيه".

وما أعمق ذلك الحب الذي نشأ بين بطلي قصة "ماجدولين" أو "تحت ظلال الزيتون" فإذا الحب قطرة غيث صافية تنزل بالتربة الطيبة

فتثمر الرحمة والشفقة والبر والمعروف وإذا كل سطر يسطره المنفلوطي في هذه القصة يحمل أروع معاني الحب فإذا كان الربيع فصل الحب فتأنس النفوس وتقترب القلوب من القلوب وتمتلئ الحدائق والبساتين بجماعات الطير الصادقة فوق زواهر الأغصان وجماعات الناس سانحة بين صفوف الأشجار فإن المحبين لا يرتاحون لما ألم بهم من فراق ويذكرون تلك السعادة التي عصروا أغصانها وجنوا ثمارها ويحنون إليها حنين الليل إلى مطلع الفجر والجدب إلى المطر.

وفي "ماجدولين" رسم لنا المنفلوطي علاقة المرأة بالرجل، فالرجل يراها أداته الخاصة التي لا حق لإنسان غيره في التمتع بها بأي وجه ويرى أن حقا عليها أن تختصه بجميع مزاياها وصفاتها فلا تقع على حسنها عين غير عينه ولا تسمع رنة صوتها أذن غير أذنه، فيغار عليها من النظرة واللفتة وكلمة الاستحسان وكلمة الإعجاب، ويخيل إليه أن الناظرين إليها والمحتفلين بها والمتحدثين بأحاديث حسنها وجمالها إنما هو قوة جناة متلصصون قد مدوا أيديهم إلى خزانة ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعا.

أما المرأة فتنظر إلى الرجل الذي تحبه نظرها إلى حليتها التي تلبسها وتعتز بها وتزهو بها على أترابها فلا أوقع في نفسها ولا أشهى إلى قلبها من أن تسمع الرجال يقولون عنه: أنه رجل عظيم والنساء يقلن عنه، أنه فتى جميل، فهي تحبه لخيلائها وكبريائها أكثر مما تحبه للذاتها وشهواتها وترى في إعجاب المعجبين وافتنان المفتنات بحسنه وجماله اعترافا منهم بحسن حظها وسطوع نجمها واكتمال أسباب سعادتها

وهنائها وهذا كل ما يعنيها من شئون حياتها.

وقد بين لنا المنفلوطي في هذه القصة أيضا الغيرة وأثرها في النفوس وهي من الحالات التي تصاحب الحب: فاستيفان عندما وجد ماجدولين مع قريبها أرشميد غار وولى وجهه عنهما وتلهى بالنظر إلى بعض الشجرات والزهرات وأخذ يترقبهما من مكمنه حتى إذا ما هبط الليل مر أمامه غرفة "ماجدولين" فسمعها تتحدث مع أرشميد ولم تلبث أن انطلقت تغني غناء شجيا لذيذا غير أن أذنا غير أذنه تزاحمه على سماعه حتى خرجت تودعه في غلالة رقيقة بيضاء فشرع ينظر إليها من بعيد فلما عادت إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها ظل راكعا أمام بابها يرسل آهاته وزفراته.

وفي قصة "الفضيلة"أو "بول وفرجينى" يصور لنا الإخلاص في أوجه بين بطلى القصة في أحدى الجزر التي في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة مدغشقر وعلى مدى غير بعيد من جزائر سيشل وهي جزيرة مقفرة لا تجد فيها أحد إلا قليل من السكان السود متفرقين في جبالها وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من الأوروبيين النازلين بينهم ويسخرونهم في حراثة الأرض واستنباتها واستخراج معادنها، وتقليم أشجارها كما هو شأن المستعمرين الأوروبيين في جميع الأصقاع التي يعيشون بها.

وقد انتهت القصة بموت فرجينى وموت بول وهو جاثم على قبرها وقد ضم إلى صدره صورة القديس بول وانتهت بموتهما المأساة فدفنا معا بعد أن خلدا أروع معاني الحب.

تأمله وهو يقول مناجيا حبيبته:

أنك كل شيء لي يا فرجيني، أنك حياتي التي لا أستطيع أن أعيش بدونها، بل لا أستطيع فراقها لحظة واحدة. إن زرقة عينيك أصفى من زرقة السماء، وأن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع، وإن ماء الحسن الذي يجول في أديمك لهو الكوثر الذي يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنان. اسمع صوتك الذي هو أشبه شيء بصوت الطائر الغرد، فيخفق قلبي خفقان أجنحة ذلك الطائر، وأضع يدي في يديك فتنبعث في جسمي رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور وما أنا بخائف ولا مذعور.

أما قصة "في سبيل التاج" التي ألفها "فرانسوا كوبيه" ذلك الشاعر الذي عرك صروف الزمان وحبس بإصبعه مصائب الإنسان حتى لقبه عارفوه "معزي المكدودين والبؤساء وشاعر الضعفاء والمحزونين" فقد صور فيها مؤلفها الصراع بين حب الأسرة وحب الوطن فضحى بالعاطفة الأولى فداء الأخرى، ثم ضحى بحياته فداء لشرف الأسرة وفيها أصبحت ميلتزاالعزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه وآلامه، إذ وجد بين جنبيها تلك النفس الطاهرة البريئة التي طالما نشدها قبل اليوم ووجد في صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذي بكاه وندبه ندبا شديدا يوم ماتت أمه ويوم تولى عن حنان أبيه، فكان يتحدث إليها في كل شيء من شئون الحياة الدقيقة وجليلها ويفضي إليها بكل خبيئة من خبايا نفسها، هذه المعاني الرفيعة من الحب هي التي بثها المنفلوطي في ترجماته ومقالاته وكان يعتقد أن الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة

سواء كان ذلك في المحسوسات أو في المعقولات وفي الحقائق أو الخيالات، وما كان الوجه الجميل جميلا إلا للتناسب بين أجزائه، وما كان الصوت الجميل جميلا إلا للتناسب بين نغماته، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء، ولولا التناسق بين أزهار الروض ما هامت به الشعراء.

وقد لاقى المنفلوطي ربه عام ١٩٤٢، ففقد الأدب العربي بوفاته ركنا ركينا من أركانه، ولكنه ترك طائفة من الأبناء يحملون رسالته ويعتقدون أنه بحق عملاق الأدب الحديث.

عبد الحليم المصري

الشاعر المنسي

هذا شاعر جيد الصياغة، واسع الخيال، حلو المعاني بيد أنه لم يظفر باهتمام النقاد في الأدب العربي مثلما ظفر أقرانه من الشعراء.

وقد كان شاعرا من طراز البارودي جمع بين السيف والقلم من ناحية، وبين الرغبة في إعادة الشعر إلى مجده الأول، وعصوره الزاهية في الأدب العربي القديم من ناحية أخرى. فسار على منواله ونهج على غراره.

وجدير بنا أن نستعرض شيئا من حياته وطرفا من شعره.

ولد عبدالحليم المصري في مايو عام ١٨٨٧ بناحية "فيشي" من أعمال دمنهور، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية التحق بالكلية الحربية التي تخرج فيها عام ١٩٠٦، والحق عقب تخرجه الأورطة السادسة عشرة المشاة في كسلا.

وقد جمع عبدالحليم المصري بين طبيعة رب السيف ورب القلم، فتراه حينا يتدفق حماسة ووطنية ويشتعل بالنخوة العسكرية، ويصف المعارك والحروب، ويفخر بجواده، وحسامه، ويزهو بشجاعته وإقدامه وتراه حينا صبا مستاهما، ومحبا هائما يتيه في بحر الحب، ويخب في

بيداء الغرام، فإذا بالبحر الصاخب المضطرب أمام بصره- صفحة هادئة وادعة ناعسة ينسكب فوقها ضوء القمر وينساب عليها زورق العشاق وإذا بالصحراء المتقدة جنة وارفة الظلال تجري من تحتها الأنهار.

والتقى عبدالحليم المصري في السودان عند خور الجأش بالقرب من كسلا بغادة هيفاء أخذ يبثها شوقه، ويفصح لها عن حبه في أبيات عذبة من الشعر:

لا ترشديني وخلي الشوق يهديني ... لعل يد نيهمو ما كان يقصيني

وسائلي الخيل عني وهي شاردة ... في مهجة النفع أرويها وترويني

لا تسقيني الماء إذ يجري وبي ظمأ ... على يديك فليس الماء يرويني

لي في ربي النيل رئم كدت أعبده ... في شرعة الحب لولا شرعة الدين

ويعتبر الشعر الذي نظمه عبدالحليم المصري في أكناف السودان من أصدق الحنين وأعذب شعر الشوق في الأدب العربي الحديث لما تضمنه من إخلاص في الإحساس، وصدق في التعبير، وقوة في العاطفة، وإشراق في الديباجة، وعذوبة في الأسلوب. وهو في هذا الباب يشبه شاعر النيل "حافظ إبراهيم" الذي سافر في بعثة عسكرية إلى السودان فلم يحالفه الحظ وجانبه التوفيق، واتهم بالتمرد والعصيان، فكتب رسالة بليغة إلى الأستاذ الإمام محمد عبده متمنيا أن تنحسر عنه هذه الغمرة وينطوي أجل تلك الفترة وينظر إليه نظرة ترفعه من ذات الصدع إلى ذات الرجع وترده إلى وكره الذي درج فيه رد الشمس قطرة المزن إلى أصلها، ورد الوفي الأمانات إلى أهلها، كما نظم قصيدة بائية يصور فيها شوقه إلى

مهبط رأسه بعد ما آب بخيبة بعد اغتراب.

ولكن عبدالحليم المصري يختلف عن حافظ إبراهيم في موضوع هذا الشوق. حافظ كان رجلا ساخطا متبرما، ضائقا متهالكا، أما عبدالحليم المصري فلم تخالط شوقه الكآبة أو الحزن، ولم يمازح حنينه هذا اللون من القطام أو يهيمن عليه هذا الظلام، إنما كان حنينه مشرقا باسما برغم ما يكتنفه من شوق لجوج ولفة عرمة.

ونظم عبدالحليم المصري قصيدة بعنوان "شاعر يسلو" حاول أن يسجل فيها بعده عن الغيد الملاح، ونفوره من الكواعب الحسان، وصموده أمام سحرهن وبهائهن، ولكنه عاد في ختام القصيدة يشدو بذكرياته، ويترنم بأنغام الحب.

مـن مبلـغ الغيـد عنـي قصـة عجبـا	تبكي وتضحك منعا الغيد في حين
أنـي سـلوت فـلا هجـر فيهـدمني	بـه الغـرام ولا وصـل فيثنيـني
فلتلبس الغيد من نسج الضحى حللا	ولـتعلم اليـوم أنـي غيـر مفتـون
وليمتـع الـنفس غيـري فـي خمائلهـا	وليقطـف الـورد مـن تلـك البسـاتين
تلـك الغصـون وكـم لويتهـا بيـدي	وبـت أحصـي جناهـا بـالموازين
حـين المحبـة تحـت الكـرم ترضـعنا	والسـحب ترضـع أولاد الريـاحين

وفي بعض القصائد الأخرى نجد عبدالحليم المصري تعاوده نخوته العربية وتتمثل فيه حميته العسكرية، فهو لا يسمع بصراع أهل طرابلس مع الإيطاليين حتى يبدي رغبته في الرحيل إلى هناك للاشتراك في

المعارك الحامية الوطيس الدائرة الرحى في تلك البقاع، وتهب به دعوة القومية العربية المتأصلة الأسس العميقة الجذور منذ أبعد الحقب والأزمان، فينهض مخاطبا السلطان عبدالحميد:

بالصيف بالرمح بالقرطاس بالقلم صونوا حمى الملك وأحموا حوزة العلم
يا صاحب التاج هذي أمة بدأت تدنس الأرض فأغسل أرضها بدم
في الشرق جند إذا ناديت عن كثب عدا إليك على جن بلا لجام

وعبدالحليم المصري لا يوجه هذه الأبيات إلى عبدالحميد تقربا إلى السلطان أو تمسحا بالأبواب أو تزيفا إلى الأعتاب، إنما يوجه إليه هذه الأبيات ليقطع دابر الظلم والطغيان ويهدم صروح البغي والعدوان، وهو قبل ذلك كله وبعد هذا كله صاحب السيف القوي البتار الذي لا ترهبه سطوة السلاطين أو يهزه جاه الملوك والأقيال وفي هذا المعنى يقول:

ألم تهزك أشعار ولي إذا جرى هز تيجان السلاطين
وصارم في الوغي لوهجته انبعثت له المقادير بين الكاف والنون

وكما قال متشبها بقول أبي الطيب المتنبي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال عبدالحليم هذا البيت:

قلبي ثيابي سطوتي همي سيفي جوادي نجاتي عدتي زردي

ومع الفارق الكبير بين البيتين فإنهما يتفقان في تمجيد الفروسية واستخدام السيف وغشين المعارك والحروب. بيد أن المتنبي كان أكثر

حبكة وأسلس أسلوبا من عبدالحليم.

وعندما أزمع عبدالحليم الرحيل إلى طرابلس للاشتراك في الحرب القائمة هناك كانت الفرحة تملأ أعطافه، وكان الفخر يختلج في صدره لأنه سيحقق أمنية طالما جاشت في نفسه، وهي أمنية الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن الحرية، والمساهمة في خدمة أبناء العروبة والإسلام الذين جمعتهم وأياه روابط وثيقة، ووشائح متينة هيهات أن يفرقها النصر أو تمحوها أيدي الزمان.

فيم الإقامة في مصر وتلك ربي يضيق فيهن صدر الرحب بالرحم
لا حبذا رقدة بالنيل ناعمة وحبذا وقفة بالجيش من أمم
لا خير في العيش يطويه الفني لما كم فرج الموت عن نفس من الألم
أستودع الله أهلي في كنانته مستقصيا عنهم مستوصيا بهم

ولما اصطدم الفريقان انتصرت جيوش العرب، وصفق الأحرار لهذا الظفر المبين، ودقت الطبول في كل مكان، وسرت الفرحة على كل لسان، ونظم عبدالحليم قصيدة في أفراح النصر جاء فيها:

السيف يصنع مالا تصنع الكتب لا الحرب قول ولا صدق الظبى كذب
تخرص القوم في الهيجاء وارتعدت فرائض هد من أركانها اللجب
ومنتهى القول أن الحرب قائمة العرب نار لها أعداؤهم حطب

وغير خاف أن عبدالحليم المصري حاول أن يستمد بعض المعاني من أبي تمام من قصيدته المشهورة في فتح عمورية وينحو منحاه في

التأنق والزينة والزخرف.

وهذه الظاهرة تدلنا على أنه كان كالبارودي يرجع إلى الشعر القديم ليستوحي منه فنه ويستمد منه طاقته ومعانيه، وقد تعلم من البارودي ألا يمدح إلا من يؤثر، وألا يرثي إلا من يعز وألا يفاخر إلا لأنه أهل فخار، ولا يصف الحرب إلا لأنه خاض غمارها، واصطلى بنارها، كما كانت شخصية حافظ إبراهيم تمتلك جوانب نفسه امتلاكا إلا أن عبدالحليم لم تمتد به الحياة طويلا فمات في يوليو عام ١٩٢٣ وهو في السادسة والثلاثين من عمره، أما حافظ فقد امتد به

العمر إلى يوليو عام ١٩٣٢ فتوفى وهو في الواحدة والستين.

أما شخصية أحمد شوقي أمير الشعراء فقد كان عبدالحليم يكبرها أعظم الإكبار، وكانت تنزل من قلبه في أعز مكان، وكان يقارض أمير الشعراء الثناء:

قربتني حتى إذا استحوزتني … أكبرت منزلتي بصدر المحفل

ولبثت تجري في سماعي صافية … من ماء شعرك كالرحيق السلسل

فتغض طرفك تارة عن عثرتي … وتقيلها طوار بغير تدلل

فإذا تبنيت أمرا فأنا الذي … يرعى الأبوة في الزمان الحول

وكان لكرمة ابن هانئ أثر كبير في نهضة الشعر العربي الحديث حيث كان يلم بها الشعراء والكتاب والفنانون من كل مكان، وكان أحمد شوقي صاحب هذه الكرمة يفسح لهم من مجلسه ويتجاذب معهم أطراف الحديث في الشعر والفن والأدب، فهذا ينشد أبياتا من الشعر،

وذاك يقص نادرة طريفة من ذخائر الأدب العربي، وذلك ينقل أثرا من آثار الشعراء في الغرب، فيغمر الكرمة كلها فيض من الأدب والفن، وكان عبدالحليم من رواد هذه الكرمة ويشعر بسعادة لا تدانيها سعادة في حضور هذه الجلسات الشجية ونظم أحدى قصائده بين أجوائها فقال:

شربت سبعا من هوى صاحبي	هم من الخمر سبع مثان
ثم استقى مثلي فصرنا معا	كأننا بين قطبا زيان
نخترق المجلس من سكرتا	آنا ونجري في نواحيه "آن"
كأنما المجلس بحر طما	ونحن في لجته زورقان
في كرمة الملك التي خلتها	كأنها بعض معاني ابن هاني
قصيدة الروض وبيت الندى	وحكمة الحسن وحسن المعاني
يزدحم السعد عليها كما	يزدحم النور على الزبرقان
أقصر "شيرين" بسكانه	أم هذه عدن بحور الجنان
وعرش بلقيس بها قائم	وتاج بوران مع الصولجان
أم منزل النعمان بين الحمى	أم سر من رابين تلك المغان
أم قصر ملك الطير في جوها	سيدنا شوقي أمير البيان

هذه هي قصيدة عبدالحليم المصري في كرمة ابن هانئ وقد نظمها عند زفاف نجل أمير الشعراء في ليلة المهرجان، وضمها سحر هذه الكرمة وفضلها على الأدب وأثرها في تنمية قريحة الشعراء، وإذكاء مشاعرهم، وقد كان عبدالحليم المصري أحد هؤلاء الشعراء الذين فتنوا

بسحرها وترنموا بفنها، وحاول أن ينهل من الينابيع العذبة من الشعر العربي القديم التي ارتوى منها أمير الشعراء.

وتوضح بعض قصائد عبدالحليم المصري حنينه إلى أرض الشام العاطرة ذات التاريخ الحافل والمجد الأثيل ويتمنى أن يحيا في رحابها ويعيش بين أكنافها لولا صروف الدهر وضرورات الحياة وتأدية واجبه حيال أهله وأسرته وأبنائه.

وفي ذلك يقول

يــا طــائر البــان أثــرت الغــرام   هــل أنــت مثلــي مغــرم يــا حمــام
جــددت بــي دائــي وغــادرتني   كــأنني ســقم بصــدر الســقام
لــولا بنيــات كزغــب القطــا"   " ونســوة خطبــي عليهــا جســام
وحــب أرض طــال عــودي بهــا   وبعــض قــوم فــي رباهــا كــرام
لمــا وضــعنا الــدهر رحــلا بهــا   ولا ضــربنا فــي رباهــا الخيــام
ولا نتجعنــا الشــام حتــى نــرى   نضــارة العــيش وطيــب المقــام

وقد تعرض عبدالحليم المصري في هذه القصيدة إلى ما يلاقيه من ألم في بلاده، وإلى محاولة الغض من قيمته والإخفاء من قدرته برغم الجهود التي يبذلها في خدمة الأدب ورفع رايته.

لا كنــت لــي يــا أدبــي حرفــة   إن كــان مــن يعليــك قــدرا يضــام
مصــر بنــا ضــاقت فمــا حــالكم   فــي أرضــكم يــا شــعراء الشــام

وقد اجتمع عبدالحليم على أثر نظم هذه القصيدة ببعض الشعراء

المصريين وكان بينهم الشاعر إمام العبد فما وصل إلى ذكر الشعراء في مصر حتى نال منه الوجدان واغرورقت عيناه، وارتد حزنه إلى فؤاده بعد أن ارتسم على أسارير جبهته. فأخذ يردد هذه الأبيات ويسابقه في النطق بها لسان الدمع فنظم عبدالحليم بيتين أضافهما إلى قصيدته وهما:

أصبحت لا أصبحت في حاله وهكذا أمسى صديقي أمام

إن كان هذا الحظ لا ينجلي يا دولة الشعر عليك السلام

ومن يتأمل البيت السابق ومن القصيدة السابقة يلاحظ أن عبدالحليم يلجأ كعادته إلى محفوظة ومقروءة من الشعر القديم فيستعير عبارة من أبيات الحطيئة التي أنشدها في حضرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليخلصه من سجنه المظلم[٥] .

وقد رد على عبدالحليم أحد شعراء الشام في مجلة الزهور عام ١٩١٠ ووقع قصيدته باسم ف. نصار. وجاء فيها:

يا شعراء النيل لا تجزعوا قد صافحتكم شعراء الشام

لا كنت لي يا موطني مسكنا إن كان فيك الحر خلقا يضام

ورد على عبدالحليم شاعر جديد من البرازيل يدعى فايز السمعاني فقال:

يا بلبل الشعر عليك السلام شامنا مصر ومصر الشام

---

[٥] هي "لولا بنيات كزغب القطا" وهي شطر من بيت الخطيئة: لولا بنيات كزغب القطا: يمشين من بعض إلى بعض ...

مالـــك بـــالقطرين مـــن منهـــل	ولـــي وراء البحـــر طـــاب المقـــام
قـــد قيـــل أن الشـــعر طيـــارة	فأركـب وطـر فـوق طبـاق الغمـام
فالبـــــدر مشـــــتاق لوصـــــافه	فأقصـده وأضـرب فـي حمـاه الخيـام
أو فـأحترم غيـــر القـــريض وقـــل	يـــا دولـــة الشـــعر عليـــك الســـلام

وعندما غمرت المياه قسما من هيكل أنس الوجود، وطغت على جزء من هذا الأثر البديع المشيد على عمد في ماء النيل بالقرب من شلال أسوان حتى بات يخشى أن يذهب أثرا بعد عين نظم الشاعر عبدالحليم المصري قصيدة باكية بعد ما نظم شوقي قصيدته التي قال فيها:

قـف بتلـك القصـور فـي اليـم غرقـى	ممســكا بعضــها مــن الــذعر بعضـــا
كعــذارى أخفــين فــي المــاء بضــا	ســـــابحات بـــــه وأبـــــدين بضـــــا

وجاء في قصيدة عبدالحليم:

وقــف عليــك دمــوعي أيهــا الطلــل	عينـــي إليـــك وقلبـــي للألـــى رحلـــوا
أرسـلت بـالعين فـي سـقياك هاميـة	وفـي الطبـول البـوالي ترسـل المقـل
يـــا أيهـــا الطلـــل المـــزور جانبـــه	هـــون عليـــك كلانـــا بعـــدهم طلـــل
وقفـــت "..." رســـما لا حـــراك بـــه	والـــيم مضـــطرب والمـــوج مقتتـــل
الـــدهر مـــل وآى الـــدهر كامنـــة	فـي وجهـك الطلـق لا يبـدو بهـا ملـل

ومن أروع ما نظم عبدالحليم في الغزل هذان البيتان اللذان يسيلان رقة وعذوبة ويتدفقان حلاوة وطلاوة:

غرست هواك في قلبي ربيعا فشب وشبت في زمن قريب
فما أنا راجع زمن التصابي ولا هو بالغ زمن المشيب

كما قال في وقفة بينه وبين المحبوب:

ولما استترنا بالظلام عن الورى ولم نستطع سترا عن الدمع والعتب
تنكري عزمي وغابت فصاحتي فأن طلقها صمتي وشجعها رعبي

كما نظم عبدالحليم قصيدة رائعة يذكر فيها أيام طفولته، ومرابع ومراتع صباه فقال:

طوت عهود الصبا يد القصر وشوبت صفوفهن بالكدر
طفولتي أين أنت من زمن وأين ليل الغرام من سمر
طفولتي ردك الزمان وكم أعطى ورد الزمان من أثر
طفولتي هل إذا ذكرتك بالدمع تفيد الدموع في الذكر
يرحم الله منك ماضية من الليالي مضت مع السير
زمان كانت فلانة معنا درة تجتلي من الدور
زمان كان الهوى لعهدك بي رضيع ثدي الأصال والبكر

ولا يبرح الشاعر حتى يذكر لهوه ومرحه مع الفتيات وهو غر صغير لا يحمل من هموم الحياة ولا يحتفظ من أوقارها بشيء فيقول:

أين نداء البنات يا ولد يمزجن جد المقال بالهذر
وهن مثل القطا إذا انتشرت يلقطن حب القلوب في السحر

تمشي التي لا اسمها بمنكشف		عنـــدي ولا حبهـــا بمســـتتر
مشـي غـزال النقـا إذا طرحـت		عليـــه أحـــدى حبائـــل النظـــر
خضـباء مـن دمعهـا علـى زمـن		كنـــا بـــه درتـــين فـــي نهـــر
تكـاد فـي العـين مـن ملاحتهـا		تنـزل فـي العـين منـزل الحـور

ويختتم الشاعر قصيدته بالشكوى من الحب، وناره، والغرام وأواره فيقول في دمع هتون:

آه مـن الحـب لا رمـاك بـه الله		فـــإن المحـــب فـــي ســـعر
فـــأختبر أمـــره علـــى حـــذر		منـــه فلـــيس العيـــان كـــالخبر
يـــا ويلتـــا عليـــك يـــا كبـــدي		مـــن حـــاكم جـــائر ومقتـــدر
لقـد جهلنـا الغـرام فـي الصـغر		وهـل عرفنـا الغـرام فـي الكبـر
أخـاطر فـي الـرؤوس منبعـث		شـعاعه فـي النفـوس بالشـرر
وهـــاجس جاعـــل مطاوعـــة		بـين الـورى سـخرة مـن السـخر
وحاجـــة كـــل أمرهـــا عجـــب		منوطـــة بالبكـــاء والســـهر
طلاسـم تلـك لسـت أعـرف مـن		يحلهـــا غيـــر فـــاطر البشـــر

ولا يلبث هذا الشاعر الذي يذوب ولها وتدلها أن يبدو بطلا يتدفق حماسة وشهامة في قصيدته الشرق والغرب، ويهيب بأبناء الشرق أن ينفضوا عنهم السبات:

يـا نفوسـا فـي ربـى النيـل رأت		عزهـا فـي عـز هاتيـك الربـى

رائحـــات كـــل يـــوم برضـــا غاديـــات كـــل يـــوم بنبـــا
كلمـا طـار صـدى مـا بينهـا هـــب النـــاس إليـــه موكبـــا
كـــلأ الله رجـــالا كلئـــوا أرضـهم حتـى قضـوا مـا وجبـا
حـــاول الجبـــار أن يقرأهـــا فـرأى فـي كـل حـرف عقربـا
فبكـــى كالطفـــل عينـــا وفمـــا وطواهـــا فضـــحكنا عجبـــا

ثم لا يلبث أن يهدد الغرب الذي "..." لينهش الشرق الجميل فيقول متوعدا مهددا:

ويـك يـا غـرب اتـق الشـرق فلـم تحتمـــل غـــيظ حلـــيم غضـــبا
قـــوة كالنـــار لـــو جاوزهـــا نفـــس المطفـــأ زادت لهبـــا
أو كـــأمواه ترامـــت مـــن عـــل كلمـــا صـــودرن زادت صـــببا
كـــم قلـــوب يتمارضـــن هـــوى لتـرى مـن قـد سـلا ممـا صـبا
ضـــيعة كانـــت فولـــت فأنشـــت كـــم ضـــياع ردت لمـــن ســـلبا

وكأنما يخاطب الشاعر أبناء العروبة عبر السنوات الخالية فيقول مثيرا الحمية موقدا شعلة الوطنية:

يـــا رجـــالا لفتـــوا الـــدهر لهـــم فمتـــى أملـــوا عليـــه كتبـــا
رب قـــول فـــي دم المـــرء جـــرى وحســـام فـــي يـــد المـــرء نبـــا
لا ســـقى الغيـــث ثـــرى مصـــر إذا هـــو لـــم ينبـــت رجـــالا نجبـــا
انفســـا طـــابوا وقـــروا أعينـــا وعـــلا زادوا وطـــالوا حســـبنا

تلك هي صفحة مطوية من حياة عبدالحليم المصري الشاعر المنسي الذي أسهم في الحركة الأدبية في أواخر القرن الماضي، ونحو الربع الأول من القرن العشرين وجمع بين حدة السيف، وبراعة القلم.

أحمد أمين

أديب كبير، وعالم جليل، ولد بالقاهرة في الأول من أكتوبر عام ١٨٨٦ وابتدأ دراسته بكتاتيب مختلفة، وبمدرسة والدة عباس الأول الابتدائية المسماة الآن بنباقادن، ثم الأزهر ثم مدرسة القضاء الشرعي فنال العالمية منها عام ١٩١١.

ثم عين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعي في السنة نفسها إلى سنة ١٩١٣ فعين قاضيا في محكمة أسيوط الشرعية، ومنها انتدب لمحكمة الواحات الخارجية، وبقى بها ثلاثة أشهر، ثم عاد مدرسا بمدرسة القضاء إلى عام ١٩٢١، فعين قاضيا في محكمة طنطا، وانتدب لمحكمة قويسنا الجزئية، ثم انتقل إلى مصر وانتدب لمحكمة طوخ الجزئية، ثم انتدب لمحكمة الأزبكية، وظل بها إلى عام ١٩٢٦، ثم عين مدرسا بكلية الآداب بجامعة القاهرة فأستاذا مساعدا فأستاذا إلى أن أحيل إلى المعاش في الأول من أكتوبر عام ١٩٤٦ وفي الأول من يناير سنة ١٩٤٧ عين مديرا للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.

ونال الدكتوراه الفخرية في ١٥ من فبراير عام ١٩٤٨ من جامعة القاهرة تقديرا للخدمات التي أداها للكلية.

كما نال جائزة الدولة وعين مديرا لإدارة الثقافة بوزارة التربية

والتعليم واختير عضوا للمجلس الأعلى لدار الكتب وأستاذا غير متفرغ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وسطع نجمه في الصحافة الأدبية عام **١٩٣٤** في الرسالة والثقافة وكان مديرا لها ثم مجلات دار الهلال، وكذلك تألق نجمه بالإذاعة المصرية والإذاعات العربية الأخرى.

وتوفى في يوم الأحد الموافق **٣٠** من مايو عام **١٩٥٤** وأطلق اسمه على أحد شوارع مصر الجديدة، وخصصت جائزة باسمه لأول الحائزين على ليسانس الآداب في قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة كل عام، وهذه الجائزة مجموعة كاملة من كتبه.

ومكتبة أحمد أمين الآن في أحدى قاعات المؤتمر الإسلامي تحمل اسمه.

وقد وصف الدكتور أحد أمين في كتابه "حياتي" دراسته الأولى في كثير من الصراحة فحكى حياته الأولى في الكتاب دون كذب ودون رياء، وقصة تعليمه بالأزهر، ومدرسة القضاء الشرعي، وروى قصة تعيينه مدرسا في أحدى مدارس الأوقاف بالإسكندرية بمرتب أربعة جنيهات وهو في الثامنة عشر من عمره، وقد سافر إلى هناك فرأى البحر لأول مرة في حياته وجلس إليه وآنس به، واستأجر حجرة في بيت بالقرب من مسجد البوصيري وأودعها فرشه وملابسه وكتبه ودراهمه، ثم عاد يوما من المدرسة فوجدها قاعا صفصفا، خالية كيوم استأجرها فاتفق مع مدرس في مدرسة أخرى أن يستأجر معه شقة من غرفتين في بيت عليه بواب، وكان صاحبه رجلا كهلا نحيف الجسم، أصفر الوجه ملتحيا، متدينا في تزمت.

وعندما أراد الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعي كان يخاف نتيجة الكشف الطبي لضعف بصره.

وفي مدرسة القضاء الشرعي تلقى الدروس على الشيخ الخضري والشيخ المهدي، وهما من فئة تعودت النظام والقدرة على الإيضاح ولم تلتزم عبارات الكتب وإن التزمت موضوعاتها، واتصلت بالشيخ محمد عبده، وكانت من خاصة تلاميذه، تعتنق مبادئه وتستنير بآرائه وتوجيهاته.

فدرس له أصول الفقه الشيخ محمد الخضري وكان لبقا لسنا ذكيا واسع الاطلاع، يجيد اللغة العربية وفروعها، والتاريخ الإسلامي، ودرس له الشيخ محمد المهدي آداب اللغة العربية وكان هذا الأدب حديث العهد في مصر، فالناس لم يكونوا يعرفون الآداب إلا على النحو الذي جاء في مثل كتاب الأغاني والعقد الفريد والأمالي ونحو ذلك.

ودرس له في مدرسة القضاء الشرعي كذلك الشيخ محمد زيد وهو رجل وقور تمرن على التدريس بمدرسة الحقوق فنقل القصة من كتب الأزهر إلى صورة مستحدثة ودرس له جمهرة من المدنيين منهم علي بك فوزي الذي درس في مدرسة المعلمين وتخرج في معاهد إنجلترا وكان يلقي عليه دروسا في تاريخ اليونان والرومان أحيانا وتاريخ أوربا الحديث أحيانا والتاريخ الإسلامي أحيانا، وأحمد فهمي العمروسي بك وهو الذي تعلم في مصر وتعلم في سانلكو بفرنسا، وكان يدرس له الطبيعة.

ودرس له عاطف بركات علم الأخلاق من المصادر الأوروبية، وكان يرجع إلى كتاب ما كنزي في علم الأخلاق وأحيانا كتاب مذهب المنفعة

لجون ستيوارت ميل.

وكان من أصدقائه العالم الكبير الأستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق وكان شابا تقدميا يقضي معه أغلب لياليه في سمر شجي لذيذ.

واتصل أحمد أمين بالجامعة الأهلية وحضر بعض دروسها ورأى فيها لونا من ألوان التعليم لم يكن يعرفه من حيث الاستقصاء في البحث، والتعمق في الدرس والصبر على الرجوع إلى المراجع المختلفة، ومقارنة ما يقوله العرب وما يقوله الفرنج، واستنتاج هادئ رزين من كل ذلك.

وأعجبه من دروسها محاضرات يلقيها الأستاذ نللينو في تاريخ الفلك، عند العرب، ومحاضرات في الفلسفة الإسلامية يلقيها الأستاذ سانتلانا.

وقد تعلم أحمد أمين اللغة الإنجليزية في مدرسة ليلية "تسمبرليتز" وذهب إلى المدرسة ورتب دروسا ثلاثة في الأسبوع بمائة وخمسين قرشا لكل شهر، واشترى الكتاب الأول، وتولت تعليمه سيدة إنجليزية تحسن الإنجليزية لأنها إنجليزية وإن لم تكن مثقفة إلا الثقافة الضرورية، غير أنه بذل جهدا كبيرا في إتقان اللغة فكان يحفظ في الطريق ويقرأ في البيت ويستذكر إذا كان مراقبا في الامتحان أو مشرفا على حصة ألعاب رياضية وما إلى ذلك.

ثم رجع إلى أحج الكتب عن الإسلام ليقرأه بالإنجليزية وكان بقلم السيد أمير علي فصعب عليه في القراءة، فعاد مرة أخرى إلى إتقان اللغة وتلقى الإنجليزية على يد "مس يور" ثم على يد سيدة إنجليزية أخرى في

ريعان الشباب تعيش مع زوجها الإنجليزي المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية عيشة أرستقراطية فخمة، وكان يقضي ساعتين في الدرس معها مرتين في الأسبوع، ساعة تعلمه الإنجليزية وساعة يعلمها هو العربية.

ومن الطريف أن الدكتور "أحمد أمين" يحكي في كتابه "حياتي" صفحات صريحة عن شبابه فيروي أنه صادف عناء كبيرا في الزواج فكلما دله صديقه على فتاة يراها فأما أن يجد مانعا منها أو تجد هي مانعا منه.

فما يرضيه لا يرضيها، وما يرضيها لا يرضيه، وأخيرا دله مدرس في مدرسة القضاء رضيه ورضى البيت به فأرسل أمه وأخته وزوجة الأستاذ لرؤية الفتاة فرأينها ووافقن عليها، وأخيرا رآها وتم عقد الزواج في ٣ من أبريل عام ١٩١٦ وقد أخذ يوم العقد مائة جنيه إنجليزية ذهبية في علبة جميلة قدمها مهرا للزوجة وانتظر نحو أربعة أشهر حتى يتم أهل الزوجة الجهاز.

وأطرف من هذا أن الدكتور أحمد أمين يقول: أنه كان من رأيه الاقتصار على ولد أو ولدين شعورا بمسئولية التربية وتوفيرا للزمن الذي يحتاج إليه في التحصيل والدرس وتمشيا مع النظرة التي يراها وهي أن الأمة المصرية مكتظة بالسكان، ولكن زوجته كانت لا ترى هذا الرأي، وقد نصحتها بعض قريباتها بالمثل المشهور "قصيه لئلا يطير".

وفي ١٩١٤ أسس أحمد أمين لجنة التأليف والترجمة والنشر واختير رئيسا لها من يوم تأسيسها حتى يوم وفاته.

ودق جرس التليفون يوما بمنزله في مصر الجديدة وهو قاضي بمحكمة الازبكية عام ١٩٢٦ وإذا المتكلم صديقه طه حسين يطلب مقابلته وذهب لمقابلته فإذا هو يعرض عليه أن يكون مدرسا بكلية الآداب، فتردد قليلا ثم قبل لنفوره من القضاء وحبه للتدريس وذهب إلى الكلية لأول مرة حيث قصر الزعفران الآن.

ومن ذلك الوقت هيأت له الجامعة رحلات خارج القطر، وكان شبابه قد أوشك أن ينقضي وهو لم يبرح القاهرة إلا حين عين مدرسا بطنطا والإسكندرية أو مدرسا في الواحات، فسافر أحمد أمين إلى أوربا وزار باريس، والاستانة، ثم زار بغداد وطاف بالعراق وغيرها من بلاد الشرق العربي.

وأقام بإنجلترا نحو أربعين يوما، وحضر مؤتمر المستشرقين في لندن، كما ذهب إلى مؤتمر المستشرقين في بروكسل ببلجيكا، وزار إيطاليا، وسويسرا حيث أقام عدة أيام في مدينة لوسرن ورأى بحيرتها واستمتع فيها بجمال مناظرها الطبيعية الباهرة.

وطاف بإحدى القرى التي على البحيرة واسمها "كيرستين" مع صديقه الدكتور عبدالوهاب عزام.

وكان أحمد أمين دائم الاطلاع، لا يميل إلى الاجتماع كثيرا ولا يحب يوما يمر عليه دون أن يخلو فيه إلى نفسه، بعيدا حتى عن أولاده وأهله، وكان يستمر في القراءة إلى نحو الحادية عشرة فينام، وقد وضع

مصباحا كهربيا بجوار سريره يقرأ عليه حتى يغشيه النوم.

وكان في بدء حياته العلمية كثير الفراغ، يصرفه في القراءة والكتابة، فألف فجر الإسلام وضحاه، ثم قل فراغه باشتغاله بكثرة المجالس واللجان، وكان يحس بنزعة صوفية غامضة ويشعر في بعض اللحظات بعاطفة دينية تملأ نفسه وتهز قلبه، وأكثر ما يتجلى هذا الشعور عند شهود المناظر الطبيعية الرائعة، كالمزارع الواسعة والأشجار اليانعة، وطلوع الشمس وغروبها، والبحار وأمواجها والطيور وتغريدها.

وكان من عادته في يوم الجمعة أن يذهب إلى حلوان أو الأهرام أو القناطر الخيرية أو نحو ذلك لينسى القراءة والكتابة، وكان يصيف في الإسكندرية أو رأس البر، ولم يعتد كيفا من الكيوف إلا الدخان، كما لم يتعود أن يضيع وقته في الجلوس إلى مقهى إلا لمقابلة في عمل، فإن مال إلى اجتماع بالناس فمع أصدقائه في لجنة التأليف كما تعود ألا يضيع وقته في لعب أو نرد أو شطرنج.

وكان شديد الخوف على سمعته الأخلاقية فيتألم أشد الألم من كلمة تنشر إذا مست خلقه، ولكنه كان واسع الصدر جدا فيما يمس آراءه وأفكاره، فلا يحزنه نقد كتبه، ولا نقد آرائه، وكانت له الشجاعة في قول الحق والتزام الصدق، واحتمال الحرمان من مال أو جاه، ولكن ليس له الشجاعة في احتمال شوكة تصيب أولاده، أو شيء يمس شرفه.

وكان شديد الحساسية لكلمة تمسه أو لفعل يجرحه، ولا ينام الليل لكلمة نابية سمعها، أو صدرت عنه في حق صديق له.

مزاجه الطبيعي عصبي غير عادي، غير أن التربية هي التي خففت من حدته، وضبطت نفسه.

حيي خجول يغشي المجلس، فيتعثر في مشيته، ويضطرب في حركته، يصادف أول مقعد ليرمي نفسه فيه، ويجلس وقد لف الحياء رأسه، وغض الخجل طرفه وتقدم له القهوة فترتعش يده، وترتجف أعصابه وقد يداري ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ولا به إليها حاجة.

وألف أحمد أمين عدة كتب هامة منها "فجر الإسلام" الذي درس فيه الحياة الجاهلية دراسة مستفيضة مدعمة بالمراجع والكتب، وقد صدر فجر الإسلام عام ١٩٢٩ وتبع هذا الكتاب ضحى الإسلام في ثلاثة أجزاء.

ثم ظهر الإسلام في أربعة أجزاء وقد طبعت أجزاؤه الأولى ست مرات، وأصبحت هذه الكتب الثلاثة من اهم المراجع التي يرجع إليها الطلاب والباحثون.

وقد درس في هذه الكتب الحضارة الإسلامية دراسة واعية مع بيان العناصر المكونة لها والظروف التي أدت إلى ظهورها، فتكلم عن الناحية العقلية من هذه الحضارة، والناحية الأدبية والناحية الدينية، وقال في مقدمة الجزء الأول من ضحى الإسلام: "لعل أصعب ما يواجهه الباحث في تاريخ أمة هو تزيخ عقلها في نشوئه وارتقائه وتاريخ دينها، وما دخله من آراء ومذاهب، ذلك أن مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود وما يطرأ عليها من تغيير ظاهر جلي، أما الفكرة فإذا

حاولت أن تعرف كيف نبتت؟ وكيف نمت؟ وما العوامل التي طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها إذا حاولت، أعياك ذلك، وبلغ منك في استخراجه الجهد ... ".

وتتضح من هذه الفقرة الطريقة التي استخدمها أحمد أمين في تفصيل الحياة العقلية عند المسلمين منذ نشأتها حتى العصور الحديثة، في كتابه "ضحى الإسلام".

أما "ظهر الإسلام" فالجزء الأول منه يبحث في الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجري، والجزء الثاني يبحث في تاريخ العلوم والآداب والفنون في القرن الرابع، والجزء الثالث الذي طبع بعد وفاته يبحث في الحركات الدينية المختلفة، أما الجزء الخاص بالأندلس فيبحث في الحياة العقلية منذ فتح العرب للأندلس حتى خروجهم منه.

ومن مؤلفاته أيضا "يوم الإسلام" وقد صدر عن دار المعارف بالقاهرة وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ويجلو هذا القاموس ناحية طريفة من نواحي الحياة الشعبية عند المصريين حيث أخذ يدرس تقاليدنا الشائعة في الزواج والأفراح والمآتم، والأحزان، وغاص إلى أغوار الحياة المصرية الصميمة في الأزقة والحارات، والقرى والحقول وصور لنا تاريخ الشعب المصري متجليا في عاداته وتقاليده، وتصويرا خلابا يستهوي القلوب والأفئدة.

ومن مؤلفاته كذلك كتاب "فيض الخاطر" وهو في عشرة أجزاء

ويضم طائفة كبيرة من المقالات التي نشرها في الثقافة والرسالة والهلال والمقتطف وغيرها من الصحف والمجلات، وتضم هذه المقالات دراسات أدبية وأخرى تاريخية وتراجم لبعض الشخصيات الإسلامية ومقالات نقدية وخطرات نفسية يعبر فيها أحمد أمين عما يجيش في نفسه من مشاعر وأحاسيس.

ومن مؤلفاته أيضا كتابه "حي بن يقظان" الذي درس فيه هذه الشخصية التاريخية المعروفة بالرحلات وجوب الأفاق دراسة ممتعة مشوقة.

ومن كتبه أيضا كتاب النقد الأدبي في جزأين، وقد حلل في الجزء الأول النقد الأدبي، وبين الغرض من دراسته، وخضوعه لقواعد خاصة واتصاله بالفلسفة، وضرورة فهم الجو الذي ينشأ فيه المؤلف ثم بين قيمة الدراسة التاريخية في فهم الأدب وطريقة الناقد "تين" العلمية في خضوع الأدب لعناصر ثلاثة وهي الجنس والوسط والزمن، ويعني بالجنس ما يرثه الناس من المزاج والنفسية، وبالوسط الأوساط المحيطة بهم من مناخ وبيئة طبيعية وأحوال سياسية واجتماعية ونحوها، وبالزمن روح العصر أو روح تلك المرحلة المعينة للتطور القومي الذي وصلت إليه الأمة في ذلك العصر، ثم بين أن النقد أقرب إلى الفن منه إلى العلم.

ثم تحدث عن عناصر الأدب من عاطفة ومعنى وأسلوب وخيال وعن المقاييس التي تقدر العواطف والأشياء التي تعتمد عليها في هذا التقدير وعن تعريف الخيال، وقيمته في الأدب وارتباطه بالعواطف، ثم

عن المعاني وما يجب اشتراطه فيها، وعن الأدب والحياة الواقعية، ثم عن نظم الكلام وكيف ننقل الفكرة ونعرضها.

ثم تكلم عن الشعر وما الذي يجب أن يتوافر فيه من شروط، وأهم الفروق بين الشعر والنثر، والشعر والموسيقى، والشعر الذاتي، والشعر الموضوعي والشعر التمثيلي حتى إذا ما انتهى من الحديث عن الشعر انتقل إلى النثر فتكلم عن الملائمة في النثر وفائدة دراسات السير في الأدب وأقسام النثر، وكلمات عن المقالة والقصة الطويلة والتمثيلية وما إليها من فنون النثر.

ثم درس العناصر الأساسية للأسلوب، وتكلم عن الرواية والفرق بين القصة والرواية والمسرحية، وأنواع الدراما، والدراما ونقد الحياة وما إلى ذلك من بحوث فنية.

ثم تكلم عن النقد وتعريفه، وضرر النقد، وفائدته، ومهمته، والنواحي التاريخية من دراسة النقد كأدب، فاستشهادات متفرقة.

أما الجزء الآخر من الكتاب فخصصه المؤلف لتاريخ النقد عند الإفرنج وعوامل انحلال الكلاسيكية الحديثة، وشرح دور "لسنج، وجراي، وجان جاك روسو" في النقد، وبين أثر مدرسة الجماليين في النقد والفرق بين الحركة الكلاسيكية. ثم تكلم عن نهضة النقد على يد وردرورثوكولردج في إنجلترا، وسنت بيف وفكتور هوجو ونيزار في فرنسا، وجوته وشيللر في ألماني.

ثم تحدث عن خلفاء سنت بيف في فرنسا، ودور كارليل وماثيو

أرنولد في توجيه النقد في إنجلترا. وتعرض لتاريخ النقد عند الأوروبيين في القرن العشرين.

كما تعرض في هذا الجزء لتاريخ النقد عند العرب منذ الجاهلية حتى العصر العباسي.

وقد نشرت هذا الكتاب لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٣ ويعد من أمتع الكتب التي ألفها الدكتور أحمد أمين.

ومن كتبه أيضا "الصعلكة والفتوة في الإسلام" وقد درس فيه ناحية غير مطروقة من حياة العرب دراسة علمية منظمة وتعرض للشعراء الصعاليك الذين كان لهم دور كبير في إنعاش الأدب العربي وإضفاء لون جديد من الشعر والشعور على التراث العربي القديم.

وألف كتاب "المهدي والمهدوية" و "إلى ولدي" وهو مجموعة من الرسائل التي خطها يراعه في نصح ابنه وتعتبر من أمتع الوصايا الأدبية التي يوجهها والد إلى ابنه.

وألف أحدم أمين كتاب "هارون الرشيد" ودرس فيه شخصية هذا الخليفة العظيم الذي جمعت شخصيته كل المتناقضات في الدنيا فهو رجل ورع تقي، يحرص على الصلاة والزكاة والصوم، ويؤدي الفرائض، وتدمع عيناه إذا تلا القرآن أو سمعه، وهو بعد ذلك رجل يحب الحياة ويطرب من الغناء، ويسر من الموسيقى، ويجمع في بلاطه القيان والمغنيات وينقضي عليه الليل وهو لا يزال يحيا في هذه الأجواء المزهرة المشرقة.

فدرس الدكتور أحمد شخصيته وحللها تحليلا دقيقا في أسلوب سهل وجميل، ودراسة علمية واستنتاجات سليمة واعية.

كما ألف الدكتور أحمد أمين كتاب "زعماء الإصلاح في العصر الحديث" وتكلم فيه عن هؤلاء الذين أسهموا في بناء النهضة الفكرية، وتدعيم أسسها، فتكلم عن رفاعة الطهطاوي والشيخ محمد عبد، وعبدالله النديم وغيرهم من الأعلام.

أما كتبه بالاشتراك فهي كتاب قصة الفلسفة اليونانية مع الدكتور نجيب محمود والناشر لجنة التأليف.

وكتابه قصة الأدب في العالم في أربعة أجزاء ودرس فيه مختلف الآداب في العالم من قديمه وحديثه، وشرقيه وغربيه، مع الدكتور زكي نجيب محمود والناشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

واشترك الدكتور أحمد أمين في نشر بعض الكتب القديمة، فنشر الكتب الآتية: الإمتاع، والمؤانسة، وديوان الحماسة، والعقد الفريد، والهوامل والشوامل، وجريدة القصر وجريدة العصر.

وقام فضلا عن ذلك بترجمة كتاب مبادئ الفلسفة.

واشترك في تأليف مجموعة من الكتب المدرسية نذكر منها المنتخب في الأدب العربي والمفضل في الأدب العربي، والمطالعة التوجيهية، وتاريخ الأدب العربي.

وفي ٣٠ من مايو عام ١٩٥٤ انتقل أحمد أمين إلى جوار ربه وكان

على تعبير الأستاذ أحمد حسن الزيات في أعقاب عمره "دنيا من العلم والأدب في هيكل بال من العضل والعصب".

وانفضت بموته تلك الحلقة التي كان يعقدها كل خميس بدار التأليف والترجمة والنشر ويختلف إليها أعضاء اللجنة وأصدقاؤها من العلماء والأدباء، وكان أحمد أمين واسطة الحلقة والرأس المنظم لما يدور بها.

كليوبترة

إن لكليوبترة يدا بيضاء على الأدب، إذ يرى المؤرخون أنها كانت تقيم في قصرها حفلات تدعو إليها رجال العلم والأدب، وأنها كانت لا تدخر وسعا في الإغداق على أهل الفن، وقد نبغ في عصرها كثير من مؤلفي المسرحيات والشعراء والفنانين.

وهكذا كانت كليوبترة تخدم الأدب في حياتها، فلما فاضت روحها إلى بارئها، وتوارت عن هذه الدنيا، ظلت تخدم الأدب بذكراها، وأصبحت وحيا لكثير من القصصيين والشعراء وكتاب المسرح، ولم تصبح حياة كليوبترة مقصورة على شعب من الشعوب أو بيئة من البيئات، وإنما أصبحت شخصية عالمية يستمد منها الوحى جميع الفنانين في بقاع الأرض.

فأثرت كليوبترة في الأدب المصري، كما أثرت في الأدب الإنجليزي وأثرت في الأدب الفرنسي، كما أثرت في غير ذلك من آداب العالم، وكتب عنها كثير من المؤرخين الألمان والروس، والأمريكيين والهنود.

ومن الكتاب الذين استمدوا من كليوبترة وحيا لهم في إنتاجهم الأولى في أوروبا الكاتب الفرنسي "توفيل جوتييهTheofhile Goutier"

الذي كتب قصته "ليلة مع كليوبترة" واستمد وقائعها من ناحية هذه الملكية العظيمة، والمعروف أن جوتيه كان من أعلام الأدب في فرنسا في القرن التسع عشر، وقد تأثر تأثرا كبيرا بالكاتب الفرنسي الذائع الصيت يلزاك زعيم الواقعية.

كما كتب الكاتب الفرنسي هنري بوردو قصة أخرى عن كليوبترة بعنوان "أنف كليوبترة" وصدق في قصته قول بسكال "لو كان أنف كليوبترة أصغر مما كان قليلا لتغير وجه العالم".

وكتب كلود فرفال كذلك قصة عن كليوبترة صور فيها مصرع قيصر وفجيعة كليوبترة في موته، وكان من المفروض أن يحتفل قيصر بزواجه منها بمجرد عودته منتصرا من حملته في بلاد الفرس.

وكتب الكاتب الإنجليزي ريدر هيجارد قصة طويلة عن كليوبترة واستقاها من بعض لفائف أوراق البردي التي عثر عليها في أحدى المقابر التي في ليبيا.

كما كتب هنري توماس بعض المذكرات عن حياة كليوبترة "والعلاقة بينها وبين كالبورنيا" زوجة قيصر، وكانت على جانب من الذكاء والدهاء، وكانت منافسة لها في حب قيصر.

وكتب المؤرخ الألماني "أميل لودفيج" قصة حياة كليوبترة. وصور ذلك النعيم الذي استمتعت به كليوبترة بين أحضان القائد الروماني، وكيف حاول أن يمد شهر العسل حتى يستغرق سنوات وسنوات، ثم أنجب توأمين من زوجته أوكتافيا غير أن كليوبترة أرادت أن تضع حجابا

صفيقا وسدا منيعا بينه وبين ماضيه. وقد وجدت كليوبترة في ذلك الجندي الخشن المحب الذي يرضي مطامعها.

وألف الكاتب المسرحي الكبير "وليم شكسبير" مسرحيته الخالدة "أنطوني كليوبترة" على أساس من تاريخ بلوارك، وصور شكسبير في مسرحية كليوبترة صورة رائعة، فهي ليست امرأة هلوكا متبذلة كما صورها بعض الكتاب الغربيين إنما هي ملكة قوية الشخصية شديدة الذكاء عميقة الدهاء، وأنطوني رجل قوي البأس شديد المراس، يمتاز بالعاطفة القوية، والشعور الفياض، ويحب كل الآخر حبا بالغا، ولا يخفض هذا الحب من قدرهما، أو يغض أو ينقص من شأنهما حتى يتنكر لهما الزمان، وتدور عليهما عجلته.

وألف الكاتب الايرلندي الساخر "برنارد شو" مسرحية أخرى عن "قيصر وكليوبترة" وليست كليوبترة عند شو سوى فتاة صغيرة في السادسة عشرة من عمرها، يقابلها "قيصر" في حضن الصحراء وتحت ظلال أبي الهول وهو يرسل إليه نفثاته وخلجات قلبه في أسلوب شاعري جذاب.

وعندما أخرج برنارد شو هذه المسرحية إلى الناس قال: خذوا هذا .. أنه لأقوى من شكسبير، ولا تصدعوا رؤوسنا بعد الآن بهذه المجموعة من الحكايات التي تسمونها تاريخ".

وهذا القول يفيد أن برنارد شو لم يشأ أن يضع نفسه في أسر التاريخ، إنما استخدم خياله، وسخريته في سبيل خلق مسرحية جديدة يخرج بها إلى الناس.

أمير الشعراء الإنجليزي

ونحب بعد هذا العرض السريع الموجز لبعض ما كتب عن كليوبترة في الآداب الأوروبية أن نعرج على مسرحيتين كبيرتين أحداهما لأمير الشعراء أحمد شوقي الذي احتفلنا بذكراه، وأخرى مسرحية أمير الشعراء الإنجليزي جون دريدن "١٦٣١– ١٧٠٠" وهو من الجيل الذي كان به شكسبير يملك ناصية الأدب عن جدارة.

وقبل أن نقارن بين هاتين المرحلتين ونتعرض لشخصية كليوبترة في كلتيهما نحب أن نقول: إن "شوقي" يتفق مع دريدن في وجوه كثيرة من الشبه، فكلاهما لقب أمير الشعراء وكلاهما تربى في أكناف القصور، واسترعت مواهبه الشعرية الخديوي توفيق، فأوفده إلى أوربا، ثم اتصل بالأمير عباس وأصبح بين عشية وضحاها "شاعر العزيز" كما كان يقول.

وهكذا كان دريدن: انحدر من أسرة عريقة ومدح وهجا من أجل الملكية، وكتب ابشالومواكيتوفل التي تعد من أروع قصائد الهجاء في الأدب الإنجليزي، ضد شافسبري الذي اتهم بالخيانة العظمى، وأنتج كثيرا من المسرحيات الرائعة "كفتح غرناطة" التي منح عليها لقب أمير الشعراء.

ولعل الشاعرين يتفقان في كتابة مسرحية عن كليوبترة، وقد أطلق شوقي على مسرحيته مصرع كليوبترة كما أطلق دريدن على مسرحيته "في سبيل الحب" أو عالم حسن ضياعه، ويقول الناقد الإنجليزي ساتسبري إن دريدن بلغ الذروة في هذه المسرحية، أو كما قال كونجريف أني

أجازف فأقول: أنه لم يكتب أحد في لغتنا الإنجليزية في كثرة دريدن وفي تنوع دريدن.

وشخصية كليوبترة عند شوقي شخصية امرأة جميلة باهرة الجمال ساحرة الفتنة، تجتلب اللباب اجتلابا، وتجتذب القلوب اجتذابا ، وأمام جمالها يقف دينون مدهوشا مذهولا:

يطأطئ رأسا لمجد النبوغ ويخفض رأسا لمجد الجمال

وكليوبترة كذلك عند دريدن فاتنة رائعة، وقد وصفها دريدن وصفا يستهوي القلوب وهي تنساب على الماء في زورقها الجميل في هدوء وسكينة والإماء حولها من كل جانب يمسكن المراوح ليجددن أمامها الهواء، وضوء القمر ينسكب عليها فتبدو آية في الروعة والفتنة، حتى أن الشيوخ عندما يقفون أمامها يرجعون سحرها إلى سن الشباب.

وكليوبترة عند شوقي امرأة معتدة بشخصيتها، معتدة بجمالها، وتصف أحبابها فتقول:

يموتون عشقا ثم يشقون بالهوى فكم من حياة في يدي وممات

وتحمل كليوبترة عند دريدن الشعور نفسه فهي تثق في جمالها، وتثق في قدرتها على أسر الرجال، غير أنها في بعض الأحيان تبدو ضعيفة كليلة لا تستطيع أن تقاوم تيار الحب ولا تقف أمام الحوادث المتلاحقة المتعاقبة، فيعتريها السقام ويدب في نفسها اليأس، وتنهار نفسيتها وتنادي وصيفتها إيراس و شارمبون حتى تسنداها مخافة أن تسقط على الأرض.

وكليوبترة عند أحمد شوقي ملكة مخلصة لمصر تعمل جاهدة في سبيل إسعاد وطنها ودرء العدوان عنه، ولكنها عند دريدن تنصاع لتيار الحب وتخضع لسلطانه، فتضل معالم الوطنية بين أوهام المحبين.

وهي عند شوقي تقول:

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وتقول كذلك:

موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر

أما دريدن فلا تلمح عنده أثر هذا الإخلاص الذي يبدو في سلوكها ولعل ذلك يرجع إلى أن "شوقي" رجل يحب أن يتيه بمجد آبائه الأولين ويعرض أمجادهم للعيان واضحة جليلة، أما دريدن فلم يكن في حاجة إلى هذا كله إنما جعل الحب أساسا لموضوعه أو لمأساته وشاع الحب فيها منذ البداية حتى النهاية.

ودريدن يجعلها امرأة تدوس على كل شيء من أجل الحب، بل أنه يرسم لنا صورة لها خلال كلمات أكتافيا في ثورتها على تلك التي اغتصب زوجها من بين أحضانها وأحضان أطفالها الصغار.

فأكتافيا تدنو من كليوبترة وتقول لها:

–أريد أن أراك عن كثب، أريد أن أرى هذا الوجه الذي أخذ حقي منذ أمد طويل .. وأن أرى هذا السحر أمامي .. هذا السحر الذي لابد أن ينال الجنس البشري رشاش منه والذي حطم مولاي العزيز.

فتجيب كليوبترة: أحسنت صنعا إذ تبحثين عنه، فلو أنك ملكت نصف هذا السحر ما استطعت أن تفقدي قلبه.

اكتافيا: العلم بهذا السحر بعيد عن المرأة الرومانية، بعيد عن الزوجة المتواضعة، يا للخجل ألا يحمر وجهك خجلا وأنت تعترفين بهذه الكلمات الغزلية السوداء التي تجعل الخطيئة سيئا يدعو إلى البهجة والسرور.

كليوبترة: قد تحمرين أنت خجلا، أنت لا تملكين هذا السحر .. ولكن شكرا للسماء السخية التي حبتني هذا السحر الذي بعث المسرة في أنبل رجل .. فكيف أفخر بهذا؟ أنا التي يحبني وعندما لا يحبني يبدل الله وجهي من وجه كهذا إلى وجه كذاك "أكتافيا".

أكتافيا: أنت لا تحبينه حق الحب.

كليوبترة: أنا أحبه أشد منك واستحقه أكثر منك – أنت لا تحبينه ولا تستطيعين أن تحبينه فأنت سبب تحطيمه.

أكتافيا: من التي جعلته رخيصا في روما غير كليوبترة؟

من التي جعلته محتقرا في الخارج غير كليوبترة؟

من التي خانته في أكتيوم غير كليوبترة؟

من التي جعلت أطفاله أيتاما، وجعلتني أنا المسكينة أرملة تعسة غير كليوبترة، وغير كليوبترة فحسب؟

الغيرة في العواطف

ولا نكاد نعثر في مسرحية أحمد شوقي على هذا العنصر، عنصر الإثارة بالغيرة، فهو عنصر أنفرد به دريدن في مسرحيته.

على أن "شوقي" أتفق مع دريدن في نهاية المأساة، واستخدم الأفاعي لتنفيذ مؤامرة الموت، وجعل كليوبترة تناجي الأفاعي بعد أن تكشف عنها في أحدى السلال فتقول:

هلمـــي الآن منقـــذتي هلمـــي ... وأهــلا بــالخلاص وقــد سـعى لــي
علــى نابيــك مــن زرق المنايــا ... شـفاء الـنفس مـن سـود الليـالي
وبعـــض الســـم تريـــاق لـــبعض ... وقـد يشـفي العضـال مـن العضـال

أما عند دريدن فتقول لشارميون:

كليوبترة: أحضري يا شرميون تاجي ومجوهراتي الثمينة، وغا النصر، وأنت يا إيراس أحضري الدواء من كل داء.

ايراس– الأفاعي.

كليوبترة– وهل أقول مرتين؟ أنها وسيلة جميلة إلى الموت، فأثير غضبها حتى تلدغني وأموت!

مسرحية موضوعها الحب

وهكذا اتفق الشاعران في هذا الواقع التاريخي ولم يحيدا عنه غير أن الشيء البارز في مسرحية دريدن أن الحب موضوعها من أولها إلى

آخرها، أما مسرحية شوقي فقد استخدم فيها بعض العناصر التاريخية وتعرض لبعض المعارك الحربية، كمعركة أكتيوم، ولم ينس في الوقت نفسه الدفاع عن شخصيتها كمصرية ترغب في الظفر والانتصار وتنادي أنطونيوس بقولها: "عد ظافرا أو لا تعد" على النقيض من شخصيتها عند دريدن فهي تذوب وجدا وترسل له من يخبره بأنها تريد أن تلقاه قبل الرحيل، فهي لا تطيق فراقه ولا تتحمل البعد عنه.

ولكننا ينبغي أن نفرق بين أسلوب هاتين المسرحيتين فنقول أن "شوقي" ألفها شعرا موزونا مقفي، أما دريدن فقد ألفها شعرا حرا .. وغنى عن البيان أن نظم المسرحيات بالشعر الموزون يحد المقفى من خيال المؤلف ويقيد من أفكاره مما جعله يستخدم الاسترسال الغنائي في مواضع شتى من مسرحيته.

وعلى أية حال فإن مسرحية شوقي تعد من روائع أدبه المسرحي، ومهما يوجه إليه من النقد فإنه أول رائد وضع أسس الشعر التمثيلي الراقي، وترك لمن بعده مهمة بناء صرح عظيم البنيان، نرجو أن يتمكن كتاب المسرح في العصر الحديث من تشييده بأقلامهم الفنية.

أرسطو

لمع اسم أرسطو طاليس الفيلسوف الإغريقي القديم في هذه الأيام برغم تطاول الحقب وتباعد بيننا وبينه، وربما كان هذا راجعا إلى تلك الترجمات الكثيرة التي أعيد نشرها حديثا، ومنها تلك الترجمات التي قام بها أستاذ الجيل الأستاذ أحمد لطفي السيد ويحلو لنا في هذا البحث أن نستعرض رأي أرسطو في الشعر والفن والجمال. وسيتبين لنا أن آراءه من أعمق وأصدق الآراء التي قيلت في هذا المضمار، فأتيح لها أن تعيش وتبقى على الأدهار.

قسم أرسطو الشعر إلى غناء وملاحم ومسرحيات، فوضع بهذا التقسيم الأساس للنقد الأوروبي الحديث. وكان يقصد بالشعر الغنائي ذلك الشعر الذي ينبع من النفس إلى النفس ويخاطب القلب والأرواح ويثير الأحاسيس والمشاعر، ومن أجل ذلك أعجب بقول الشاعر "موزي" الذي كان يعيش قبل أرسطو بأربعة أو خمسة قرون: "الغناء هو اللذة الحقيقية للحياة" واعتبر الغناء من أكثر الدعائم ضرورة للتربية في المدينة الفاضلة لأن كل ما يؤتي لذات بريئة وطاهرة يمكن أن يشارك في غرض الحياة الأسمى، أو يكون وسيلة للترفيه".

أما الملاحم فهي القصة الطويلة التي تصف أعمال أبطال عظام والتي كثيرا ما تصف المعارك والحروب، وتتحدث عن النزال والطعان

والهزيمة والانتصار، والغزو والفتح، والاستيلاء، وتكون لغتها فخمة رفيعة الأسلوب، ومن وزن قوي متين.

وتشتمل أكثر الملاحم على حوادث خارجة عن المألوف. وقد تشترك الآلة في أحداث الملاحم كما في الملحمتين الشهيرتين اللتين تنسبان إلى هوميروس وأعني بها مسرحيتي "الإلياذة" و"الأوديسة" وقد ظهرت في العصر الحديث ملاحم أوروبية شتى منها الكوميديا الإلهية لدانتي وأورلاندو والغاضب لاريستو والفردوس المفقود لجون ملتون.

أما المسرحية فقد اشترط فيها أرسطو التزام الوحدات الثلاثة المشهورة وأعني بها وحدة الزمان والمكان والموضوع، وبمقتضى هذا الالتزام يجب أن تقع القطعة المسرحية في يوم واحد، وفي مكان واحد، ولا تشتمل إلا على موضوع واحد، غير أن الفكاك من هذه الوحدات لم يلبث أن أنطلق.

وشرع الكتاب يتحررون منها ما وسعوا إلى ذلك سبيلا دون أن يغض هذا من قيمة مسرحياتهم الفنية، بل على العكس من ذلك كان هذا التحرر وسيلة من وسائل النضج والامتياز.

ولكننا إذا ما تتبعنا تاريخ المسرح وجدنا لفيفا من مشاهير الكتاب ومؤلفي التراجيديا مثل كوني وراسين ومؤلفي الكوميديا مثل موليير ظلوا يحرصون على تلك القواعد التي وضعها أرسطو قبلهم بألاف السنين.

ووضع أرسطو للتراجيديا علة غائبة أطلق عليها "التطهير النفسي" ويقصد بذلك أن التراجيديا تطهر النفس البشرية من أدران الخوف

وانفعالات الشفقة، لأنها تثير مثل هذه المشاعر بين حوادثها فتداوينا بالتي كانت هي الداء على حد تعبير أبي نواس.

ويظهر أن أرسطو قصد في نظرته التطهير إلى هذين الانفعالين لأن التراجيديا الإغريقية كانت زاخرة بهما، مقتصرة عليهما. وكانت تدور في مجموعها حول الآلهة أو الملوك والأمراء وما يدور بين هذه القوى من انفعالات الخوف والشفقة.

وقد تطور فن المأساة على مرور الأيام وأصبحت المسرحية لا تقتصر على هذين الانفعالين بل تطهر النفس من شتى الانفعالات والمشاعر المكبوتة التي لا تجد متنفسا لانطلاقها ولا تلقى سبيلا إلى خروجها.

وكان أرسطو يرى أن الأدب يهدف في مجموعه إلى التأثير في النفوس على نحو لاشعوري، فلما تقدم الزمن ظهرت المذاهب الأدبية المختلفة التي نادت بالغايات الإرادية التي يهدف إليها الأدب، ويسعى إلى تحقيقها ويعمل على نشرها.

أما في الفن فقد كان أرسطو طاليس يعتقد أن الفن نوعان: نوع يكمل الطبيعة كالطب، فإنه إذا اقتصرت الطبيعة في منح الصحة للبدن، جاء الطبيب يساعد الطبيعة بفنه، ونوع يسمى الفنون الجميلة كالتصوير والموسيقى والشعر، وهذا النوع عمله أن يقلد الطبيعة في كمالها، فإذا صور إنسانا فهو يصور الإنسان كاملا، وبعبارة أخرى يجب على المصور أن يرى الإنسانية في الفرد.

وكان يعتقد أن التربية تتكون عادة من أربعة أجزاء متميزة، هي الآداب والرياضة البدنية والموسيقى وأحيانا الرسم: فالأول والأخير باعتبار منفعتهما التي هي محققة كما هي متنوعة في الحياة كلها والثاني باعتباره صالحا لأن يورث الشجاعة، أما الموسيقى فإن الأولين لم يسلموا البتة بالموسيقى في التربية، على أنها حاجة، بل أنهم كانوا ينظرون إليها عادة على أنها ملذة ليس غير، ولم يقبلوها على أنها شيء نافع كالنحو الذي لا غنى عنه وهو من الأسس الرئيسية التي يدعو أرسطو إلى تعليمها في المدينة الفاضلة لاستخدامه في شئون التجارة والاقتصاد المنزلي، ودراسة العلوم في طائفة من الأعمال السياسية، ولا كالرسم الذي يعلم صدق الحكم على نتاج الفن، ولا كالرياضة البدنية التي تؤتي الصحة والعافية، بل لم يجدوا في الموسيقى إلا شغلا كريما للفراغ وإذا كانت هناك استراحة خليقة بالرجل الحر فإنها الموسيقى، وفي ذلك يقول هوميروس:

"فلندع إلى الوليمة شاديا ذا صوت شجي" أو حين يقول: على بعض آخرين من أبطاله الذين يدعون الشادي الذي يسحرهم جميعا صوته، وفي مقام آخر يقول "أوليس": أن أحلى اللذات عند الناس حين يستسلمون للسرور إنما هي أن يستمعوا في المأدبة التي يصطفون فيها لأناشيد الشاعر.

ولكن أرسطو ينظر إلى الموسيقى من وجهة نظر أخرى، فهو يرى أنها وسيلة للوصول إلى الفضيلة، فهي تعود النفوس لذة شريفة طاهرة، كما أن الرياضة البدنية بعيدة الأثر في الأجسام، وهي بمعاونتها على

ترويج النفس تساعد على تكميلها، وهي استمتاع حق، وبما أن الفضيلة تنحصر على التحقيق في أن يحسن المرء الاستمتاع والحب والبغض كما يأمر به العقل فينتج من ذلك أنه لا شيء حتى بدراستنا وعنايتنا مثل ملكة الحكم الصحيح على الأشياء، وأن نضع لذتنا في الإحساسات الشريفة والأفعال الفاضلة وأنه لا شيء أقوى من الإيقاع وأغاني الموسيقى لحكاية الغضب والطيبة والشجاعة، بل الحكمة ذاتها وجميع إحساسات النفس حكايات حقيقية بقدر الإمكان كما تحكي أيضا جميع الإحساسات المقابلة لتلك، وإذا كانت الحوادث الواقعية تكفي أن تثبت، كيف يغير حالات النفس مجرد حكاية الأشياء التي من هذا القبيل سواء بالفرح أم الحزن، فما بالك بالموسيقى؟ فمتى تغيرت طبيعة الألحان تغيرت معها انفعالات المستمعين تبعا لكل واحد منها. فباللحن الشجي كلحن المذهب المسمى "ميكسو ليدي" تحزن له النفس وتنقبض، وألحان أخرى ترقق القلب، وتلك هي الأقل في مراتب التفضيل، وبين هذين الطرفين لحن آخر يواتي النفس على الخصوص سكونا تاما وهو المذهب الدوري الذي هو وحده يؤثر هذا الأثر فيما يظهر. أما المذهب الفريجي فهو ينقل النفس إلى التحمس.

من القرن التاسع عشر الميلادي

ألفونس دوديه

بين أحضان المروج الخضراء حيث الخضرة النضرة تمتد امتداد البصر، وتنحني قامات الزرع وهامات أشجار الخزامى فيد يد النسيم الحنون .. وحيث الشمس الدافئة الجميلة .. وحيث ينثر الغبار .. فيملأ الجو .. في بعض الأحيان .. خرج "ألفونس دوديه" الكاتب الفرنسي إلى الوجود.

وقد أخرجت الكاتبة المعاصرة "مس فيرادوبيه" كتابا عن هذا الكاتب العبقري درست فيه طفولته ونشأته وحبه وزواجه وإنتاجه الأدبي منذ أيام معدودات فحق لهذا الكتاب أن يمون كتاب الموسم.

نشأ ألفونس في أحضان الريف وخرج إلى الوجود عام ١٨٤٠ وكان قد مضى على زواج أبيه عشر سنوات. ويزعم بعض الرواة أن "ألفونس" خرج إلى الحياة وأبواه في ضنك شديد، ولكن "ألفونس" يقول عن نفسه في كتابه "الكائن الصغير" أن أبويه لم يكونا في ضيق وعسر في هاتيك الأيام وكان ألفونس يحب أمه حبا جما وكانت أمه تحب الكتب والاطلاع إلى أبعد حد فكان يجلس إليها ألفونس بين الحين والحين يقص عليها روائع القصص وأجمل الحكايات فبث في الطفل الصغير حب الأدب والقراءة وكان يصحبها إلى الكنيسة، فغرست في نفسه حب الدين والتقى وأحب أجراس الكنيسة وهي تقرع الآذان برنينها في الفضاء.

وظل الفتى يتعلم في مدارس ليون، ثم تاقت نفسه إلى الحياة في باريس واستهوته أضواؤها وبهره صيتها وحلم بالشهرة بين أرجائها وهتف بإخوته "هيا فلنذهب إلى باريس".

وذات يوم أزمع مع أخيه "أرنست" الرحيل إلى باريس، وفي الساعة الثالثة صباحا وصل "ألفونس" إلى المدينة الحالمة في حذائه الريفي الكبير وهيئته الرثة، فلم يكن ألفونس يملك في ذلك الوقت حذاء مدنيا رقيقا. وكان قد أنفق ما معه من النقود اللهم إلا مبلغا ضئيلا يحتفظ به في جيب سترته.

ودخل ألفونس باريس وهو يتأبط ذراع أخيه أرنست على حين كانت باريس تغط في نومها تحت سحب السماء الرمادية. وعبرا الجسر الذي يؤدي إلى الضفة اليسرى حيث باعة الصحف واللبن يسعون في الأرض وعرج ألفونس على الحي اللاتيني حيث قطن في حجرة صغيرة هناك ينهل من آداب فرنسا الخالدة، وكان يختلف بين الحين والحين إلى مسرح الأوديون حيث عرف الكاتب الفرنسي فلوبير ووطد صداقته مع كثير من الكتاب الفرنسيين.

وتعلم الكاتب لأول مرة أن يلبس السترة الطويلة الذيل وأن يلج صالونات الطبقة الراقية وأن يكتب في الصحف السيارة مثل جريدة "سبكتاتور". وفي مساء ١٤ من يناير عام ١٨٥٨ انتشرت الأخبار في أرجاء المدينة كالنار في الهشيم بأن هنالك مؤامرة قد دبرت لقتل الإمبراطور والإمبراطورة إذ ألقى أربعة من الإيطاليين قنابل على العربة

الإمبراطورية في أثناء ذهابها إلى أوروبا وقبض على أحد المؤتمرين ولا يزال البحث جاريا على الآخرين الذين تاهوا في زحمة المتفرجين.

وقد خرجت جريدة "سبكتاتور" على الناس بمقال شديد اللهجة تتهكم فيه على الإمبراطور وتقول: إن مثل هذه الحوادث لا تحدث إلا في عهد الحكومات الظالمة فأغلقت الجريدة وضاع مورد كبير من موارد الشهرة والمال للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه .. ولكنه أخذ يكتب في صحف أخرى ويحضر اجتماعات الطبقة الراقية فأسر الرجال والنساء بجماله الرقيق وصوته الممتلئ العميق ووجهه الأسمر الذي لفحته شمس الجنوب.

وعاش ألفونس في بوهيمية فترة طويلة من الزمن ولكن حياة بوهيمية الصاخبة اللاغية وكؤوس الخمر وأقداح النبيذ لم تؤثر على حد تعبير أخيه أرنست وأخذ ألفونس يضرب في ميدان الصحافة والشعر حتى بزغ نجمه وعلا اسمه، ثم عمل في قصر "البوربون" وعندما بلغ أعتاب قصر البوربون كتب أخوه أرنست يقول: "أن ألفونس ذو طبيعة حالمة ومزاج رقيق أكثر مني. وهو شاعر ساحر والطبيعة تفعل فيه سحرها حتى اليوم الذي يستوفي فيه أنفاسه. وهو وسيم جذاب عبقري. فماذا ينقصه ليكفل له النجاح؟ غير أن روحه الحالمة تسيطر عليه .. وهذه خصلة العباقرة .. إن العبقرية حمل ثقيل .. وهناك أزهار تحتاج إلى مناخ خاص وأن ألفونس من هاته الأزاهير".

لم تكن والدة ألفونس ولم يكن أخوه يحبذان هذا العمل له ويريان

أنه غير مخلوق لهذا النوع من الأعمال. وصدق تكهنهما بعد ذلك إذ طلب ألفونس بعد فترة وجيزة من الدوق "دي مورنيه" أجازه للراحة والسياحة فترك الشاب باريس في نوفمبر ١٨٦١ في ليلة ممطرة وودع أصدقائه قبل سفره وأخذ يقول: أنني نبت قد تجمد نصفه غير أن الشمس الدافئة في الجنوب سوف تحينني .. وفي تلك البقاع كان نفر من أصدقائه وذوي قرباه ينتظرون الكاتب الساحر إلا أنه لم يمكث في القرية طويلا وأزمع الرحيل إلى بلاد المغرب وكوسيكا حيث متع بصره وغذى قريحته بمشاهداته وتأملاته في تلك البلاد.

وفي مستهل عام ١٨٦٤ رجع ألفونس دوجيه إلى باريس حيث أخرج بعض قصصه ومسرحياته ومن أروع القصص التي دبجتها يراعه قصة سافو Sapho والخالدة L'immortol وجاك Jack ونومارومستان NumaRoumestan والثري Lo Nobab والملوك في المنفى Les roisenexil وغيرها من القصص والمسرحيات.

وفي هذه الفترة خفق قلب ألفونس دوديه للحب ومس الهوى قلبه بعصاه السحرية، فإذا بهذا الكاتب الساحر يهيم شوقا ويفيض حبا ففي أثناء عرض أحدى مسرحياته على المسرح الفرنسي كان ألفونس يلبس حزاما ذهبيا فوق حلة أنيقة وكانت غادة حسناء تجلس في أحدى المقاصير مع أبيها وأمها تدعى جوليا الرت. كانت جميلة كزهرة الربيع مشرقة كفلق الصبح تتدفق بالحياة والنشاط. وترنو إلى المسرح بعينيها التي جمعت أشتات الفتنة ففيها ضلال العقول وهدى الجنون! وقد سألت الفتاة أحد عمال المسرح عن ذلك الشخص الذي يشد وسطه

بحزام ذهبي فأجابها بأنه ألفونس الكاتب الذائع الصيت. فخرجت "جوليا" عقب الحفل وفي قلبها صورة ألفونس وفي عينيها خيال من مسرحيته التي هزت أفئدة الحاضرين.

وبعد شهور قليلة ذهبت جوليا مع والديها إلى بيت دوديه في قرية أثري وكانت جوليا ترتدي ثوبا أبيض كنور الصبح وتتغنى بأبيات عذبة من الشعر تلقيها أمام ألفونس في صوت حلو طروب.

وما جن المساء حتى أختلى ألفونس بأخيه أرنست وأخبره بأنه صريع الهوى وأسير الغرام وأنه قد أحب مدموازيل جوليا الرت ويطمع في أن يتخذها عروسه. وكانت جوليا فتاة صغيرة تحب الشعر والكتب وتمثل التواضع والسحر والأنوثة. وكان ألفونس يكره النساء المتحذلقات ذوات المواهب، ولكنه اليوم أصبح أمام فتاة من طراز جديد ربيت في بيت من العلم وتقاليد القرن التاسع عشر، وكانت إلى جانب حبها للعلم تجيد الحياكة وتؤثر قضاء الأصائل في الشتاء في حدائق الفويلري. وكانت جوليا من الشمال، وكان ألفونس من الجنوب. فجذب ذلك الاختلاف نفس ألفونس ووجدها مكملة له. ووجد فيها الهدوء والاتزان والفضيلة التي يمكن أن تسيطر على نفسه وأن تطرد هزائمه وأن تسوقه من نصر إلى نصر، فصمم على أن يتزوجها.

ولعل أصدق ما كتبه عن الزواج ما كتبه في "زوجات الفنانين": أن الزواج بالنسبة إلي مرفأ ذو مياه هادئة وليس بمرفأ تربط فيه نفسك بوثائق إلى الأبد ولكنك تستقي منه إلى الأقلاع مرة ثانية.

وفي مستهل عام ١٨٦٧ زفت جوليا الرت إلى ألفونس دوديه ورحل ألفونس مع عروسه إلى إقليم البروفانس حيث رأت طواحين الهواء وجاسا معا بين المروج ثم عادا إلى باريس.

ولكن الحب بين العروسين أصيب بصدمة قوية. إذ تغيرت أخلاق ألفونس في هذه الفترة وأنفق كثيرا من ماله في العبث واللهو وفي المقاهي والملاهي والمنتديات. وكان يرجع إلى عروسه في الهزيع الأخير من الليل مخمورا فاقد الوعي يتطوح يمنة ويسرة، ممزق الثياب أشعث الشعر دامي الوجه. وكانت زوجه تقف إزاء هذا كله قوية الأعصاب ضابطة النفس وتستقبل ذلك كله بصدر رحب حتى أقنعته بضرورة احترام حرية البيت وسكبت في نفسه لحن الحب، وكانت مائدته دائما معدة وثوبه نظيفا وطعامه جاهزا كما يقول في مذكراته.

كان ألفونس دوديه يعيش في طاحونة من طواحين الهواء. وقد كتب رسائل من هناك استهلها بقوله: أجل يا سيدي .. رسائل من طاحونتي، غير أن الذي يكتب هذه الرسائل ليس طحانا .. ولو كان كذلك لأثر بياض الدقيق على سواد المداد. فلست طحانا وإنما أنا صحفي يسير. صاحب طاحونة. وقد تظن أن هذا شيء عظيم بالنسبة إلى صحفي مثلي ولكن لتهدأ بالا. فما هي إلا طاحونة عتيقة مهجورة مفقودة. في إقليم البروفانس .. وما أجمل المقام في طاحونتي وما حاجتي إلى البشر وأنا أكتفي بمنظر أقول الشمس وراء أشجار الصنوبر وأطياف النور على الصخور ويصوت ريح الشمال الراضية وهي تداعب هامات الأفنان".

وكان ألفونس دوديه يجلس في حمى هذه الطاحونة مع أصحابه يستمتع بأجمل القصص وأشجى الأحاديث. وكان صاحبه فرانس العجوز يلعب على الأرغن فيهز أوتار القلوب حتى إذا ما انتهى من تغريده قص عليه قصة السيد "كورني" صاحب طاحونة الهواء الذي عبس في وجهه الزمن ودهمته الأحداث. فجعلت أصحاب طواحين الكهرباء يستبدون بالأمر استبدادا.

ويذهب إليهم جميع الأهالي لطحن الدقيق أفواجا ولكن السيد كورني أثر ألا يجعل الشماتة تسري في قلوب الناس من أجله، فأحضر أفواجا من الحمير وجعلها تدخل الطاحونة متعاقبة، وهي تحمل أكياس القمح وجوالات الدقيق، حتى يخدع الناس ويوهمه أنهم لا يزالون يلجئون إلى طاحونة الهواء.

ولم يلبث أن كشف أمره فوضع رأسه بين يديه وأنكفأ يبكي في لوعة تفتت الأكباد وتقطع نياط القلوب.

وهكذا عاش ألفونس دوديه فترة طويلة من عمره في حمى هذه الطاحونة يكتب رسائله ومؤلفاته. فاسترعت مؤلفاته أنظار فرنسا بوجه خاص وأنظار أوروبا بوجه عام. وقد صور ألفونس في بعض قصصه الصراع القوي الجبار الذي نشأ بين أصحاب طواحين الهواء وأصحاب طواحين الكهرباء.

وأصيب الشاعر في أواخر حياته بمرض الروماتيزم الذي عاقه عن الحركة والسير .. وأخذ يزحف إلى عينيه ولم يلبث أن أدركه في قلبه

وهنا حم القضاء ورفرف الموت فوق رأسه بأجنحته السوداء.

وذات صباح استيقظ الناس في فرنسا .. ونبأ موته يملأ كل مكان والعبرات تلمح في العيون .. والكآبة .. تلوح على الوجوه، والحسرة تتصاعد من الصدور.

من القرن التاسع عشر الميلادي

تشارلز ديكنز

يعد تشارلز ديكنز من أشهر كتاب القصة في الأدب الإنجليزي، فقد ألف بضع قصص مشهورة مثل دافيا كوبر وقصة مدينتين وأوليفر توست وبكويك التي تصور لنا إنجلترا القديمة ذات الفنادق والعربات تصويرا دقيقا وغير ذلك من القصص المشهورة والمغمورة التي جعلته زعيم القصة في القرن التاسع عشر.

وكان عشاق الأدب الإنجليزي يرون في ديكنز رجلا فاضلا قديسا حتى كتبت ابنته "كيتي" مقلا عن أبيها جاء فيه: "لقد أحببت والدي .. أكثر مما أحببت أي رجل في العالم .. لقد كان رجلا شريرا .. شريرا جدا .. غير أني أحبه .."

هذه الكلمات التي أنبعث بها صوت كيتي ابنته عن أبيها .. وهي في التاسعة والثمانين من عمرها وتلقي بصرها عبر الماضي لتجمع من الأحداث مواكب الذكريات وقد جعدت وجهها إمارات الشيخوخة .. وحنت ظهرها خطوب السنين.

استمع إلى كيتي وهي تقول عن أبيها: قد تكون فضيحة أن أتحدث عن ديكنز وهجرته لزوجه واندفاعه في طريق الغواية ومصاحبة الشيطان وتتيمه بحب الين نونان التي تدله بحبها أعواما طوالا وتزوجها وحملت

منه ابنا مات وهو في نضارة الصبا وزهرة العمر .. لقد حدث أني كنت أنقب مع مستر روبرتس وهو أحد الناشرين المهتمين بروايات شارلز ديكنز "مكتب تشارلز ديكنز" فعثرنا على مذكرات تلقي أضواء على حياته الخاصة وقصة حبه وغرامه.

في أحدى مدائن إنجلترا الصغيرة عرف ديكنز الكاتب الكبير عائلة هوجارت حيث عاش هادئا ناعما في كنفها وعكف على كتابه المشهور "بكويك" وكان مستر هوجارت في ذلك الوقت قد تعدى الخمسين من عمره كان رجلا هادئا وقورا وكان رجلا أدبيا فنانا له حظ في الأدب والموسيقى، وكان لمستر هوجارت ثلاث بنات أثرن تأثيرا كبيرا في حياة ديكنز وهن كاترين وماري وجورجينا. ولقد كانت كاترين في العشرين من عمرها أما ماري فكانت في السادسة عشرة أما جورجينا فكانت لا تزال طفلة صغيرة.

وكانت الفتيات الثلاث بمثابة نسيم عطري يعطر حياته ويملأ صدره فيبعث فيه النشوة وتتسرب إلى قلبه السعادة .. تلك السعادة التي فقدها في حبه الأول مع ماريا.

كان ديكنز ينظر حواليه فإذا بفتيات في عمر الزهور يحطنه من كل جانب ويملأن فراغ حياته ويشعرنه بالحنان المفقود .. والراحة الضائعة .. فهذه تنثر عليه ابتساماتها كاللآلئ .. وتلك ترنو إليه بنظرة قد جمعت كل آيات الولاء .. وتتقدم إليه لتستمتع بخيالاته الرقيقة وأحلامه الحلوة فيردد في أذنها بعض أشعار شكسبير أو ملتن.

ولكن ماذا؟ ما له يستيقظ من نومه أرقا قلقا .. ماله يرنو إلى كاترين فيحس في تقابل نظراتهما شيئا أقوى من النظرة وأحد من البصر .. وهو أشبه شيء بالعناق؟ مالم يقف ساهم الفكر مقلب النظرات حائر اللب .. معقود الكلمات كلما دنت منه .. أو لاحت أمامه .. أو خطرت عابرة من حجرة إلى حجرة؟

ترى هل حضر إلى هذا المكان .. لينبثق في قلبه حب وليد .. ترى هل حضر إلى هذه البقعة .. ليندفق من فؤاده .. حب قوي جارف .. لا تقيده الحدود ولا السدود .. لقد كان ديكنز مترع الشباب تتدفق منه الحيوية ويسيل منه النشاط ويتوقد قلبه حساسية وشعورا فانقلب في غمضة عين محبا مستهاما.

كان الليل يهبط على ديكنز وهو لا يزال يقظا في غرفته عاكفا على كتبه وأوراقه فتأتي كاترين مشفقة عليه من السهر وتشاركه في ألمه وتجاذبه أطراف الحديث.

ونحن لا نستطيع أن نصور كاترين أسمى وأصدق من التصوير الذي وضعته لنا مسزكريستان في أحدى رسائلها: كانت كاترين فتاة لطيفة .. وادعة ذات أهداب جميلة وطويلة .. وعيون ساحرة زرقاء تسلب أفئدة الرجال .. أما الأنف فدقيق والجبهة جميلة .. والفم صغير والشفاه لمياء حمراء .. تترامى عليها ابتسامة جميلة معبرة وتنساب من عينيها نظرات وسنانه حالمة .. غير أن ناحية الغيب في وجهها أن ذقنها كانت تنحني سريعا فوق عنقها.

كانت تقف أمام المرآة تنضح بالعطر فكانت تراود ذهن ديكنز في هذه اللحظة أفكار وخيالات .. أية أيها العطر! .. لقد خرجت من أزهار عبقة جميلة مائسة وستعلم حين تسكبك كاترين على جسمها الفاتن أنك رجعت إلى أجمل من أزهارك وأحلى من شداك وأنك كالقديسين .. تركوا الدنيا ولكنهم ظفروا بنعيم الجنة! ..

وكان تشارلز ديكنز يرسل إلى صاحبته كاترين قصاصات من الورق يكتب فيها هذه الكلمات "حياتي العزيزة .. أرسل إليك قبلاتي الحارة ولثماتي الثائرة".

وكان ديكنز يسأل كاترين بعد تلاوة هذه القصاصات أن تنبئه برأيها فيه، فكانت تجيب عن سؤاله بابتسامة معبرة .. وقد انتهى بهما الوله والحب إلى عقد قرانهما في ٢ من أبريل عام ١٨٣٦.

ولقد عاشت ماري أخت كاترين مع أسرة ديكنز فترة طويلة. غير أن القدر لم يشأ أن تدوم هذه الصحبة طويلا، فقد حدث أن ذهب الثلاثة ديكنز وكاترين وماري إلى أحد المسارح فأصيبت ماري منذ هذه الليلة بمرض خطير لم يمهلها سوى ساعات قلائل، فطارت نفس ديكنز شعاعا من أجلها وقد أثر هذا الحادث في نفس ديكنز تأثيرا بالغا وكتب يقول: "بعد أن ماتت كان خيالها يراودني في كل ليلة لشهور متعددة ولا عجب في هذا فقد كان ديكنز رقيق الشعور مرهف الحس تراوده الأفكار وتلائمه الأشباح وتؤثر في حياته الصور وتتراءى في كتاباته كما فعل في أوليفر تويست أو دافيد كوبر فيلد، ومأساة ماري أشبه بمأساة نللى

الصغيرة في أحدى رواياته.

ولكن حياة ديكنز لم تمض هادئة وادعة كما كان يظن، بل عصفت بها الأحداث واجتاحتها الخطوب وثارت في جوانبها الأعاصير وانقلب ذلك المحب الواله في حب كاترين شخصا باردا ثقيلا .. وانقلب الوجه المعشوق شيئا تافها بسيطا لا يأبه له ديكنز ولا يعيره التفافا .. وإزاء هذا الفتور والنفور هجر ديكنز كاترين.

حقا لقد كانت دائما تحاول أن تثيره .. وكان يحضر إلى منزله فيجدها غارقة في لعب النرد مع أحد أقاربها فلا تحفل بوجوده ولا تعبأ بحضوره غير أنها كانت في أغلب الظن تفعل ذلك لإثارة حبه وكان هو مشغولا عنها بحب الين نرنان.

ومهما يكن من شيء فقد دبت القطيعة بين ديكنز وكاترين فهجرها وعندما كانت كاترين تمرض كان يبعث إليها من بيته برسالة لا تدل على أنها رسالة زوج إلى زوجته .. إنما تدل على أنها رسالة رجل ثائر .. حائر .. عصفت به الأقدار واجتاحت رأسه الهواجس والظنون.

لقد عرف ديكنز في الأيام الأولى من زواجه أن رجل أساء الاختيار فلم تفهمه زوجته ولم يفهم زوجته ولم يكن أهلا لها ولم تكن أهلا له وغن كان لها منه عشرة أبناء .. فكتب يقول: "أني أنا وكاترين ليس أحدنا أهلا للآخر .. وليست هي التي تجعل حياتي ضيقة عسيرة بائسة إنما أنا أيضا فهي كما تعلم محبوبة لطيفة ولكن وأسفاه ليست الرابطة بيننا وثيقة ولا العاطفة وشيجة! وربما تكون كاترين أكثر سعادة لو أنها تزوجت رجلا

آخر، فإن الفراق بيننا لابد أن يكون ليسعد كل منا .. قلبي يتقطع أربا أربا .. ونفسي تطير شعاعا عليها، إذ أعلم كم هي حزينة عندما تعلم أني عليل .. أو عكر المزاج، ولكن ما الحيلة .. والعوائق جمة، وليست هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تجعلها تفهمني أو تجعل مزاجها يساير مزاجي؟

وهكذا عصفت الأقدار بحب كاترين وديكنز ويبس الثرى بينهما ودبت القطيعة والجفاء بين روحيهما .. وقد يظن ظان أنها لم تكن تملك الأسلحة الكافية لاستهواء ديكنز غير أن من يقرأ رأي ديكنز الأول وخطاباته إليها وتشببه بها يضرب بهذا القول عرض الحائط.

والواقع أن ديكنز كان من اللون المتقلب .. كان من الكتاب الذين يجدون اللذة في التغيير .. والذين يؤثرون الثورة والانقلاب في ذروة المجد .. لمجرد خاطر طاف بأذهانهم أو فكرة ألمت بعقولهم ....

كان ديكنز من الكتاب المفرطين في الشعور المسرفين في الأدراك ومثل ذلك كان كتاب تولستوي الذي كانت زوجته تحيا بلا خدم ولكنه دفعها إلى أن تسامر عشرة أو اثنتي عشر من أصدقائه تحت سقف واحد..

ولما مات ديكنز عام ١٨٧٠ طار نبأ موته في الآفاق ... وروعت بموته إنجلترا وأمريكا .. وكندا وأستراليا .. وغيرها من بلاد العالم ...

فقد عرفه كل الناس حتى الصغار، غير أن طفلا صغيرا على حد تعبير الكاتب الفرنسي المعروف أندريه مورا رابه شغل الناس في هذا اليوم..

وتزاحمهم واجتماعهم فتساءل قائلا .. هل مات مستر ديكنز حقا. أو يحتفل الناس الليلة بعيد الكريسماس.

هنريك أبسن

رائد المسح الحر

قدمت بعض الفرق المسرحية تحفتين رائعتين من مسرحيات إبسن، إحداهما بعنوان لعبة البيت ، والأخرى بعنوان "الأشباح".

والواقع أن هنريك إبسن يعد علما خفاقا من أعلام الدراما في العصر الحديث وقد ولد عام ١٨٢٨ بالقرب من مدينة "سكين" في بلاد النرويج وأمتاز عن إخوته جميعا منذ نعومة أظفاره بدقة حسه ورقة مشاعره وولعه بالشعر وعكوفه على الانتهال من مناهل الأدب في كتب العباقرة الأولين.

اهتم هنريك إبسن في مطلع حياته بنظم الشعر وكتابة المسرحيات الشعرية، ولكنه لم يلبث أن هجر الشعر إلى النثر ووجد فيه الحرية في التعبير والانطلاق في التفكير. ومعالجة المشكلات الاجتماعية في صورة أوضح ووسيلة أسطع. ويمكن أن تقسم مسرحيات إبسن ثلاثة أقسام:

القسم الأول هو تلك المسرحيات التي تغرق في جوها الديني والتي كتبت على غرار مسرحيات الإغريق مثل مسرحيات براند وبيرجيت.

والقسم الثاني من مسرحيات إبسن هو نقطة التحول من الشعر إلى النثر وتنزع مسرحيات هذا القسم نزعة اجتماعية واضحة. وهكذا ركزا

إبسن اهتمامه نحو المجتمع بعد أن كان يركزه نحو الدين. ويمكن أن نعد مسرحيات "الأشباح" Ghosts التي قدمها المسرح القومي وبيت الدمية أو لعبة البيت Doll's House التي قدمتها فرقة الطليعة وأعمدة المجتمع من بين مسرحيات هذا القسم.

والقسم الثالث من مسرحيات إبسن يعالج المشكلات النفسية ونزعات الفرد وأهوائه وعلاقاته بالمجتمع وبالمثل العليا ويجعل الطبيعة البشرية ميدانه الذي يصول فيه ويجول، ويمكن أن نعتبر مسرحيتي "البطة الشموس". و "العمود العظيم" من بين مسرحيات هذا القسم.

وتظهر قيمة مسرحيات إبسن في زعامته للمذهب الفردي أو المذهب الحر، وينادي أصحاب هذا المذهب بضرورة إطلاق حرية الفرد ليعمل وفق حقوقه الأساسية المستمدة من طبيعته الإنسانية، ففي العالم قانون صحيح مطابق للطبيعة ثابت أبدي يتولى الله تأييده ويعاقب من يخالفه، ولذلك يجب- على الأفراد أن يخضعوا لأحكامه ومن يتنكر له فقد تنكر لطبيعته ومن نفر منه فقد نفر من إنسانيته.

وهذا القانون الطبيعي على حد تعبير الفيلسوف الروماني شيشرون هو أساس المبادئ الخلقية والقانونية، ولذلك يجب على المجتمع ألا يتدخل في شئون الفرد، لأن هذا التدخل يقتل في الفرد اعتماده على نفسه ويجني على استعداده الطبيعي ويضعف من شخصيته ويحدد من إمكانياته نحو التطور.

أما عدم التدخل فإنه يمكن الفرد من تقوية صفاته الشخصية وتنمية

ملكاته ويزوده بالوسائل التي عن طريقها يصل إلى أسمى درجات الحضارة.

هذا هو خلاصة المذهب الفردي الذي لخصه الفرنسيون في قولهم دعه يعمل دعه يمر Saissezfaiue Laissez Passer وقد حمل هنريك إبسن لواءه كما حمل لواءه من قبل آدم سميث وجون ستيوارت ميل. وحاول إبسن أن يحقق هذا المذهب في أكثر مسرحياته.

ومن يقرأ مسرحيته "بيت الدمية" يجد صراعا بين الفرد والمجتمع وبين المثالية والواقعية على حد تعبير برنارد شو في مقاله عن "النزعة الإبسينية".

وخلاصة هذه المسرحية أن نورا زوجه "هلمر" مدير أحد المصارف استطاعت أن تزور سندا صغيرا باسم أبيها بعد وفاته بأيام لتستدين من موظف في المصرف مبلغا من المال حتى تمكن زوجها المريض من الذهاب إلى إيطاليا للاستشفاء ولم تشأ "نورا" أن تخبر زوجها بهذا الدين حتى لا تثير في نفسه بواعث الضيق أو أسباب الألم وتهيئ له رحلة سعيدة رغيدة كما لم تشأ نورا أن تخبر أباها بشأن هذا الدين برغم انتحالها لتوقيعه، لأنه كان على فراش الموت ولا تريد أن تزيد فوق غصصه غصة أخرى.

ويشاء سوء الطالع أن يرتكب "كروجستاد" الموظف جريمة ما، فيصمم هملر مدير المصرف على فصله دون أن يحيط علما بشأن دين زوجته فيذهب كروجستاد إلى نورا زوجة مدير المصرف ويتوسل إليها أن

تتوسط لديه عند زوجها ولكن هملر لا يريد أن يتزعزع عن رأيه أو يبغي عنه حولا، حينئذ لا يجد كروجستاد وسيلة لإنقاذه سوى التهديد والوعيد، فيذهب إلى نورا المسكينة مهددا متوعدا ولكنها لا تملك سوى الدموع تذرفها من ما فيها والحسرة تبعثها من أغوار نفسها وأعماق قلبها، وعلى حين غرة يصمم كروجستاد أن يرسل إلى زوجها خطابا يخبره بالحقيقة المريرة ويخبره أن نورا قد لجأت إلى التزوير ... التزوير الذي لا شك سيسلمها إلى السجن ويهوى بسمة البيت إلى الحضيض، ويجعل سيرة بيت هملر مضغة في الأفواه وحديثا على الشفاه.

وفي انتفاضة الغريق بين اليم ورجفة الطير الذبيح يرسل كوجستاد الخطاب المشئوم إلى هملر. ولا يطالع هملر الخطاب حتى تبدو إمارات الغضب على وجهه وتتجلى علائم الضجر والحقد وينفجر كالبركان الثائر في وجه زوجه وينقلب من الزوج المدلل لزوجته إلى نمر مفترس يوشك أن ينقض على فريسته وطفق يوجه إلى زوجته أقذع ألوان السباب لأنها خرجت عن طريق الحق وجادة الصواب وحطمت تقاليد المجتمع الموروثة منذ الأزل.

حقا لقد زورت نورا من أجله واستدانت المال من أجله، ولكن هذا يعد بالنسبة إليه أمرا حقيرا، لأنها حطمت المثل العليا وهوت بالقيم الأخلاقية الرفيعة، وانحدرت بها إلى الحضيض.

ولم تستطع نورا قبل زوجها إلا أن تغضب وتصمم على ترك المنزل.

وهنا يظهر كروجستاد ويطلب من هملر أن يعد الآن منتهيا وانه لن

يبلغ النيابة ولن يطلب التحقيق. فتهدأ نفس هملر ويثوب إلى رشده ويجع إلى وعيه ويصبح مرة أخرى هادئا رزينا، ويطلب من زوجته أن تظل في البيت لأن المجتمع لن يعلم عن هذه الجريمة شيئا. غير أن نورا المعتزة برأيها المتمسكة بكرامتها لا تقبل مساومة في الرأي وتصمم على ترك المنزل مهما تكن النتائج وينسدل ستار الفصل الأخير من المسرحية على هذا المنظر الأليم.

وقد ثار نقاد المسرح على هذه الخاتمة وعدوا هذه المسرحية خروجا إلى العصيان ودفعا للزوجات للخروج على طاعة أزواجهن، غير أن إبسن بهذه الخاتمة أراد أن يبين مساوئ المثالية ومحاسن الواقعية وينصر المذهب الحر الذي كانت بطلته نورا وحاملة لوائه.

لقد عملت ما رأت أنه الصواب غير أن تقاليد المجتمع متمثلة في زوجها وقفت في وجهها حجر عثرة. فلم تجد بدا من هجر زوجها كما تهجر المقرورة المدفأة لأن فحمها قد احترق وحرارتها قد خمدت .. على حد تعبير بريان برونز في كتابه Sit plays by Jbsen عن ست مسرحيات لإبسن.

واستخلص بعض النقاد الآخرين من هذه المسرحية ومسرحيات أخرى مشابهة أن إبسن من الدعاة إلى تحرير المرأة وتخليصها من عبودية الرجل كما يزعمون. ولكن الواقع أن أبسن لم يكن من أصحاب هذه الدعوة بطريق مباشر في يوم ما. ولم يكن من الكتاب المتحمسين لقضية المرأة في وقت ما إنما كل ما في الأمر أن أبسن كان يعتقد

اعتقادا جازما أن المرأة أقدر من الرجل على أتخاذ المذهب الفردي والدعوة إليه، والمرأة لا تجد حرجا في التحرر من قيود التقاليد وأصفاد المجتمع. بل إنها بحكم أنوثتها تستطيع أن تبتدع في أزيائها ما شاء لها الابتداع وتغير في نظامها ما شاء لها التغيير على النقيض من الرجل الذي يحافظ على التقاليد ويرعى حرمة المجتمع، فلهذا السبب كان أكثر المدافعين عن مذهبه الحر نساء في مسرحياته.

ومن هنا استخلص النقاد أن أبسن من أنصار تحرير المرأة. وغير خاف أن مسرحيات أبسن قامت بدور كبير في الدعوة إلى حرية المرأة وترجمت إلى لغات العالم كافة ومثلت على جميع المسارح الأوروبية والأمريكية وقد ساعد على رواج مسرحيات أبسن أن المرأة في مختلف البلاد أخذت تطالب بالتحرير في ذلك الوقت. وهبت الكاتبة النرويجية "استاهنشتين" تدعو بحرارة زائدة إلى تحرير المرأة وتتخذ من مأساة سيدة سويدية مع طالب نرويجي مخادع عبرة وعظة ودافعا إلى تحرير المرأة.

تلك نبذة وجيزة عن هنريك أبسن رائد المسح الحر في أوروبا، ومهما وجه إلى مسرحياته كثير من الانتقادات فإنه أصبح صاحب مدرسة حرة في المسرح الحديث بلا منازع، ولسنا بصدد بيان نصيب مسرحياته من الصواب أو الخطأ إنما بصدد تسجيل أثر صاحب مدرسة مسرحية أقتحم إنتاجه الفني مختلف الأقطار والأمصار وسار عبر البحار!

الفهرس